obeikandl.com

أحبك أكثر

الكتاب : احبك اكثر

المؤلف : عمرو المنوفى

تصميم الغلاف : كريم آدم

رقم الإيداع : 2016 / 20533

الترقيم الدولي : 978-977-778-083-4

20 عمارات منتصر – الهرم – الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

أحبك أكثر

عمرو المنوفى

obeikandl.com

بعض الأمور لا مفر منها، كالحب والموت.

obeikandl.com

سامح

obeikandl.com

obeikandl.com

-1-

كانت ليلة عاصفة لا مثيل لها.

السماء عابسة، والسحب قاتمة، والأمطار تنهال بغزارة على الأرض وكأنما تمهد لطوفان جديد. الأشجار تعاني في وحدة وصمت، والبرد يكاد يجمد الدماء في العروق، والأفكار في الرؤوس، بل ويكاد يصل لنبضات القلوب المنهكة ليوقفها.

الرعد يصم الآذان كسيمفونية صاخبة يقودها مايسترو مجنون، والبرق يشق قلب السماء دون رأفة؛ مؤلفًا من جراحها المضيئة لوحات مبهرة تثير الرهبة في قلوب المتابعين، وكأنها تنذر بغضب إلهي قادم، ليطهر الأرض من دنس كل من يخونون عهودهم، ويكسرون قلوب من عشقوهم يومًا.

البرد قارص، والصقيع أجبر الجميع على الكمون في منازلهم متمتعين بدفء الصحبة الأسرية التي حرمت منها.

مما جعلني أفكر في أسى- وأنا أنظر لأثر باهت لقيد ذهبي قديم لم أعد أضعه في أصبعي منذ زمن- لابد وأن كل عاشقين يضمهم فراش واحد

الآن، بعد أن أجج البرد ما بداخلهم من عواطف ورغبات، بينما المنكسرين أمثالي كقطرات المطر المنهمر مبعثرين لا وطن لهم ولا أمل.

ما أروع أن يكون هناك من ينتظر عودتك كل ليلة وخاصة في مثل هذه الليالي الباردة الممطرة، فيضمك باهتمام وحب. لينتزع من عظامك البرد، ومن روحك القلق، ويصير ملجأك، وموطنك، وسكنك، وسندك، وسترك. فتستكين في حضنه وتنسى الدنيا وهمومها.

هذا شعور لا مثيل له، ومن أجله يبذل المرء حياته. ولكن من يستحق تضحية مماثلة، في عالم لا يعرف إلا الإدعاء.

قاسية هي الحياة. لا تحقق لنا أي أمنية إلا وكانت ناقصة، تخدعنا بالبدايات السعيدة، وتفجعنا بالنهايات غير المتوقعة ؛ لتزيد من رصيد أحزاننا، وكأنها تستكثر علينا أن نفرح.

الساعة تتخطى منتصف الليل بعدة دقائق، صقيع الدنيا استعمر القاهرة، وزحف منها إلى عظامي وحواسي.

أقود عائدًا إلى المنزل ودخان التبغ يلف السيارة من الداخل، مختلطًا بتلك الأدخنة الناتجة عن احتراق روحي.

الوقت يمر ببطء.

obeikandl.com

الأفكار اليائسة والمحبطة تحاصر عقلي، وكأنما يتلذذ باجترار لحظاته التعيسة، وأعتقد أنها المرحلة الأخيرة قبل الدخول في حالة شاملة من الاكتئاب والعزلة، التي لن أخرج منها إلا لوضع أسوأ.

عمقت الفكرة بداخلي إحساس عارم بالوحدة والضياع، ووقر بداخلي أنه من أجل ليلة باردة كهذه، وإحساس مميت كإحساسي، خُلق الحب الحقيقي، وشُرع الزواج المبني على هذا الحب إن وجد.

أنفث دخان سيجارتي محاولًا مع دخانها الكثيف طرد الأفكار السلبية التي تدور في ذهني، مسترجعًا تفاصيل يومي الطويل في العمل، الذي استهلك مني ومن مرؤسي في القسم الهندسي كل طاقتنا ومهارتنا، وأجبرنا على البقاء في مقر الشركة حتى هذا الوقت المتأخر من الليل، لإعداد مخططات المشروع الجديد.

كان يومًا مرهقًا ولم ينتهي بعد.

أتخطى الإشارة الخضراء الباهتة، المحلات مغلقة، والشوارع خالية. الطريق يظهر أمامي موحشًا كغابة من المباني الأسمنتية، أمضي أنا عبرها لآخر البشر في شوارع القاهرة.

وهي عبارة محبطة تصلح لفيلم كئيب عن نهاية الحياة في المحروسة، التي تكافح كي تظل صامدة مع ما تمر به من محن.

(موت كل شيء).

فكرة سلبية أخرى ينبض بها عقلي المرهق، وقلبي المثقل بالهموم، والندوب.

أقطع الطريق الموازي لمنزلي، أتفادى بحيرة من الأمطار، وأخيرًا أصل إلى شارعي غير مصدق أني قد فعلتها، فمع الإرهاق والتعب والأفكار المتواترة، بدا لي أنني سأظل أقود إلى الأبد دون أن أصل إلى وجهتي.

أركن سيارتي في مكانها المخصص لها أسفل البناية، أقطع بحيرات الماء الآسن المتخلفة عن الأمطار في حذر، قابضًا على حقيبتي مستخدمًا إياها كمظلة لتقيني سيل المطر المتساقط.

أرفع عيني إلى نافذة شقتنا الخارجية، فألمح مصباح الصالة مضاء وهيئة أمي القلقة تتجسد خلف النافذة، تلك العزيزة لم تستطع النوم قبل الاطمئنان على عودتي سالمًا.

وفي النهاية كنت في المنزل، أقبل يدها، وأخبرها للمرة الثانية بعد المائة أني تناولت العشاء في الشركة ولا أرغب في طعام سوى النوم، فتصر على اصطحابي إلى غرفتي، وتتأكد من تبديلي لملابسي وإحكام الغطاء من حولي، قبل أن تقبل جبيني، وتطفئ نور غرفتي، وتتمنى لي أحلامًا سعيدة.

صوت قطرات المطر على زجاج النافذة، واهتمام أمي الزائد، يبعثان في قلبي الشجن، ويستدعيان الذكريات المطمورة في قلبي من سباتها.

لم تكن ذكرى بعيدة بقدر ما كانت ذكرى ثقيلة ومؤلمة، تعود زمنيًا للشتاء الماضي، والذي لم يكن بنفس البرودة والكآبة.

ذكرى يتخللها وجه خطيبتي السابقة سلمى، التي كانت تبتسم لي في دلال راكضة تحت رذاذ المطر المتساقط، وأنا أطاردها في سعادة متصاعدة، بأحلام عاشق ساذج يثق أن الغد لن يمنحه إلا المزيد والمزيد منها.

غير ملتفتين إلى نظرات المارة القلائل الذين شاهدوا إحدى لحظات جنوننا معا على كورنيش النيل واستنكروها، فمع أصابعي التي تحتضن أصابعها، كنت مؤمن أننا ما دمنا معًا، لا يهم شيء أخر في الكون.

روحي كانت معلقة بها لدرجة أن مجرد وجودها بجواري لخص الحياة ذاتها، وأظهر جمالها الخفي، ونورها الغائب.

كانت متوغلة حتى الثمالة في مسامات يومي، مزروعة في كل جزء مني، ارتبطت بها حد الهوس، أدمنت عيوبها قبل مميزاتها، فأصبحت هي الشمس، ومشاعري الكواكب التي كانت تدور في فلكها.

ولأنه من الصعب تمييز الصواب من الخطأ عندما تسلم مقاليد قرارك لقلبك، فاتبعت هوى قلبي، وانجرفت مع مشاعري، ولم أعد أرى من

الدنيا سواها، وأغلقت أذني عن كل من نصحني، فعصفت رياح الغدر بكل سفن أحلامي، وأغرقت روحي في ليل حزين .

لم أكن أتخيل حتى في أعتى كوابيسي، أن ما أحياه مع سلمى مجرد خدعة دنيئة متقنة، وأن كل هذه المشاعر الصادقة مصيرها سلة المهملات.

كانت قمة الحقارة ألا تقدر كل ما فعلته، وأفعله من أجلها، وأن يكون قلبي أهون شيء في حساباتها، وأن يكون وجعي أخر البنود في قائمة اهتماماتها.

لا شيء يفقد الحب معناه ولا الحياة طعمها، إلا فقدان الثقة في من تحب، وسلمى التي أدعت الفضيلة ولم تملك ذرة منها، جعلتني أفقد الثقة فيها وفي نفسي، فلا أنا قادر على العودة، ولا أنا قادر على النسيان.

من داخلي أُدرك جيدًا أن عودتي إليها أمنية مستحيلة، فما ينكسر لا يعود كما كان، ولو عاد يكون مشوهًا.

إلا أن ما يدور بأعماقي الآن يؤكد لي في إصرار أن المشاعر لا تموت ببساطة، وأن القلب لا ينسى بسهولة، حتى لو عاش هزيمة الخيانة وألم البعاد.

شي ما في هذه الليلة الماطرة أيقظ بداخلي الحنين إليها، وهو شعور مربك، خاصة وأنا موقن أن حبها لي مجرد كذبة كبيرة منمقة.

والمقلق هنا أن جزء مني يريد أن يتجاهل كل ما عشته معها من إحباط وخذلان، وأن يمحو ذاكرة الوجع، ليستردها ولو مجرد حلم.

وكأن الحب لعنة لا تنتهي حتى بالفراق.

أن يتوق قلبي للحب هو شيء منطقي وعظيم مع كل هذا الجمود العاطفي الذي يجتاح حياتي بعدها، ولكن أن يحصر قلبي هذا الحب في سلمى دون العالمين، وأن يراوده الحنين إليها وكأنه يعاقبني على ذنب لم أرتكبه في حقه، هذا هو ما يثير ارتباكي ويقض مضجعي، ويطير النوم من عيني.

الساعات تمضي، وأنا أتقلب تحت الغطاء الثقيل مشتتًا بين الرغبة في النوم، وحاجتي الماسة للاستيقاظ، ومع الضغوط التي تحاصرني، وجسدي المتوتر من مجهود الأمس، صار النوم جحيمًا خالصًا.

فلا هم أكبر من الوحدة، ولا عذاب أصعب من الخذلان. ولا خيبة تفوق الفراق.

والحنين ابتلاء عظيم، وقلبي لم يمتلك الصبر يومًا.

صوت منبه هاتفي المحمول يتصاعد من مكان مجهول في أروقة عقلي، هاجس غامض يحضني على عدم ترك الفراش الدافئ، والحصول على

المزيد من ساعات النوم، مع عجز كامل عن تنفيذ أي من الفكرتين، أو طرد سلمى من عقلي.

- " صباح الخير يا سامح ".

قالتها أمي بصوتها العذب الرقيق، وهي تزيح الستائر عن نافذة غرفة نومي ليتسلل الضوء إلى داخلها على استحياء، بعد أن كللت الغيوم الرمادية ثوب السماء، ليصبح الاستيقاظ الآن فرضًا.

رمقت وجهها الذي لا أشبع منه في حبور، مستمدًا من ابتسامتها قوة خفية، جعلتني أشعر أن الصباح هو طلتها العذبة، وأنها هي الشمس التي غابت عن سماء الدنيا وسماء روحي، لتبدل مزاجي ونفسيتي الكسيرة.

رددت عليها متسائلًا بصوتي الكسول المرهق :

- صباح الخير يا ست الكل ..كم الساعة الآن ؟! .

منحتني أمي ابتسامة أكثر عذوبة وعيناها تحتوياني بحنان، بعد أن لمحت أثار الإرهاق والسهر على وجهي الشاحب، فقالت بصوت مشفق :

- السادسة والنصف يا باشمهندس .

نحيت الغطاء جانبًا على أثر كلماتها، ثم تمطيت في الفراش معاندًا جسدي المثقل بأطنان من القهوة والنيكوتين، ثم قلت :

- لقد فاتتني صلاة الفجر يا أمي.. لماذا لم توقظيني ؟.

منحتي نظرة مشفقة أخرى وقالت:

- كانت ليلتك مرهقة يا حبيبي، وعدت من عملك بعد منتصف الليل لا ترى أمامك، ولم تحظى بساعات نوم كافية أو مريحة، وستسافر اليوم مبكرًا، فأشفق قلبي عليك. لتصلها صبحًا، الله غفور رحيم .

استغفرت الله في سري، وأنا أفكر في ترتيبات اليوم، وحالة الطقس.

هل أستخدم سيارتي في السفر، أم أستقل القطار الذي حجزت عليه مقعدي بالأمس، نظرت عبر النافذة فلمحت الأجواء المكفهرة فتبددت من رأسي فكرة السفر بالسيارة في هذا الجو المتقلب مثيرًا قلق أمي، مزعجًا نفسي بحالة المرور والطقس والطريق.

كان السفر ضروريًا وملحًا من أجل عرض المخططات النهائية للمشروع الجديد على اللجنة الفنية بتلك الشركة العملاقة –الصالح جروب- التي منحت شركتنا المشروع الجديد من الباطن، وهو موعد لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أخلفه، أو أتأخر عنه لأي سبب.

لاحظت أمي كسلي، فعادت تلح علي :

- الباشمهندس سيتأخر، وهذه ليست عادته .

obeikandl.com

هززت رأسي لها دون أن أرد عليها على غير العادة مع عشقي الدائم لمشاكستها، ونهضت من فراشي متثاقلًا أجر قدماي جرًا، متوجهًا صوب الحمام بخطوات معتقل كُبلت قدماه بالسلاسل الحديدية، ولا رغبة لديه للبحث عن سبل للخلاص.

رائحة البخور المغربي تتخلل مساماتي فلا تتفاعل معها حواسي. في يوم أخر كانت ستمنحني نشوة وطاقة وتفاؤلًا لا حدود له ا، من الواضح أن منحناي النفسي في الحضيض.

حاولت أن أنفض الكسل عن جسدي، وأنا متسمر أمام الحوض بعد أن غسلت وجهي عدة مرات دون جدوى، وفي النهاية أيقنت أن دش دافئ سيكون له أثر السحر على عقلي وجسدي المنهك ين، وسيساعدني على مكافحة برودة الجو التي تكاد تجمد أطرافي.

السخان ممتلئ بالماء الحار، ونظرة واحدة إليه جعلت تقبلي للفكرة أيسر. لم تنس أمي أن تعده من أجلي. لم تنس أمي يومًا أي شيء يخصني، ولن تنسى، فأنا حياتها، وهي كل ما تبقي لي بعد رحيل أبي رحمه الله .

الماء الساخن ينهمر فوق رأسي طاردًا كل جيوش الكسل التي تحاول غزوي، الحيوية تتغلغل إلى خلايا جسدي، عقلي يستعيد وجه سلمى المغري فيتملكني الضيق.

أخرج إلى غرفتي، وأنا أستغفر الله منها وكأنها ذنب عظيم؛ ليتلاشى وجهها من عقلي وتبقى في الروح غصة.

صوت الشيخ محمد رفعت يرج كياني بتلاوته المميزة: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ). أردد بداخلي كما علمني أبي الراحل، وكما سبقنا الجن بالفضل: ولا بأي من ألائك يا رب العالمين .

أغرق للحظات مع الصوت الملائكي فتصفو روحي قليلا.

رائحة الأمطار المنعشة تفعم الجو، ومعها يتسرب عبق الحياة إلى جسدي المرهق.

وفي عجالة ارتديت ثيابي التي أعدتها لي أمي كما تحرص دائما، ثم أنهيت صلاتي. وتوجهت بعدها صوب المائدة العامرة، ورائحة الفلافل الطازجة، والفول الغارق في السمن البلدي يثيران شهيتي، ومع أول لقمة نزلت جوفي، أثنيت على صنيعها :

- سلمت يداكِ يا ست الكل .

تهلل وجهها بابتسامة رائقة وغمره البشر وهي تمنحني نظرة امتنان، قبل أن تقول بصوت يملؤه التأثر:

- تسلم من كل شر يا حبيبي.. ألف هناء على قلبك.

كنت سعيدًا برسم البسمة على وجهها بثنائي على جودة طعامها، وهي عادة تعلمتها من أبي الراحل، الذي كان يتمتع بذكاء عاطفي مدهش. فعلمني أن الطعام بالنسبة للأنثى حدث مقدس تبذل فيه جزء من روحها، وحبها، واهتمامها، ووقتها. ويهون عليها التعب والمشقة التي تلقاها في إعداده، كلمات الثناء الصادقة ممن تهتم لأجلهم.

إنه نوع من الحب المغلف بالتقدير والمودة، وكل زوج في العالم يدرك تأثيره من تلك اللمعة التي تزور عين زوجته، فور إطرائه على جودة طعامها.

إطراء الأنثى على حسن صنيعها نوع عظيم جدًا من الحب، غفل عنه الرجال منذ عصور، ولم يغفل عنه أبي رحمه الله. بل إنه لخص لي كنه العلاقة بين الرجل والمرأة، في جملة بسيطة لم تفارق ذهني يومًا:

- الاهتمام والاحترام يا ولدي هما منتهى التعبير عن الحب .

تذكرته وقد انهمكت في تناول طعام الإفطار في نهم- وهو وسيلتي للهروب من حرب الأفكار تدور رحاها برأسي- فترحمت عليه في سري، وأمي تحرص على تشجيعي على تناول المزيد من الأصناف، التي تجاور الفول والفلافل.

كانت تلك الغالية تطعمني والقلق يطغى على ملامحها، إن بعدي عنها يؤرقها، ويجعلها لا تشعر بالراحة، برغم أن الإسكندرية لا يفصلنا عنها

سوى ساعات محدودة. ولكنه قلب الأم الذي لا يسكن ولا يستريح، إلا وابنها بجوارها، تحت نظرها، وقريبًا من قلبها.

لا حرم الله أحد من أمه أبدًا، فالأم هي الظهر والسند والحنان.

فقدان الأب ابتلاء يمكن احتماله بكثير من الصبر والجهد، وفقدان الأم مصيبة، وكسر لا يمكن جبره.

انتهيت من الوجبة الممتعة فكان قدح الشاي بالنعناع جاهزًا فأخذت أرشف منه على مهل، وأنا أرقب عقارب الساعة التي تقترب من السابعة والنصف. صوت الشيخ محمد رفعت مازال ينساب من الراديو ليبث الاطمئنان في روحي مع تلاوته العطرة، ونظرات أمي الحانية تمنحني الدفء برغم برودة الطقس.

وفور أن انتهيت من تناول قدح الشاي، كانت حقيبة ملابسي وأوراقي معدة، فتناولتها من أمي في امتنان، وقبلت يديها كما أعتدت دائمًا لأن ال بركتها، وقبل أن أغادر المكان سمعت دعواتها لي:

- ليحفظك الله يا بني، ولا يصادفك في طريقك إلا أولاد الحلال.

دعوتها لي أشعرتني أن اليوم بدأ بالفعل، وعززت بداخلي يقين خاص أن كل عملي القادم سيصحبه التوفيق من الله سبحانه وتعالى، وبكل ما يعتمل بداخلي من مشاعر رددت في صوت ممتن:

- لا حرمني الله منك يا أغلى الناس.

وفور أن غادرت البناية كانت تلك السيارة الملاكي الحديثة التي تخص شركة (أوبر) والتي أصبحت البديل الآدمي للتاكسي، واقفة تنتظرني وبداخلها سائقها الشاب الأنيق، فدلفت إليها، لينطلق بها السائق بعد أن برمج الوجهة على هاتفه المحمول.

كان المطر قد توقف عن الانهمار منذ لحظات، وغسل السيارات والأشجار، ومنح للوجود رائحة مميزة استقبلتها روحي في حبور. لحظات من السكون والنقاء قلما تحظى بهما شوارع القاهرة.

صورة سلمى تعود لتلح على خاطري مرة أخرى!.

لا أعرف ماذا أيقظ الشتاء بداخلي لتبعث ذكراها بهذا الشكل الملح، وأي جزء من قلبي مازال حيًا بعد ما اقترفته في حقي وحق نفسها، ليذكرها بهذا الشغف، بل ويشتاق إليها، ويتمنى وصالها.

لماذا الحنين إليها الآن ؟

هل الفراغ والوحدة هما من يدفعاني نحوها، أم هي إرادة الشقاء ؟.

لماذا رغم الفراق لم تخرج من قلبي بعد؟.

هل الحب يعني القبول بالهوان؟

أم أن الحنين قهر قلبي، وأطار صوابي لأتعلق بقشة لن تمنعني من الغرق؟.

لا أعتقد أني مستعد لأي خيار منهم الآن.

لا الحب، ولا الهوان، ولا الغرق.

وصلت إلى محطة القطار فاختطفتني من أفكاري حشود البشر المتجمعة في المكان. الوجوه الناعسة المرتجفة من لسعة البرد التي تجتاح كل شيء. هدير القطارات المستعدة للمغادرة. أكشاك البائعين التي لا يبدو أن أحد بداخلها ينام. قبل أن يسحبني القلق من جديد لأنغمس في التفكير في تفاصيل ذلك المشروع الضخم الذي كلفت بمتابعته والعمل عليه.

مسئولية ضخمة وضعت على عاتقي، في هذا التوقيت الحرج الذي تمر به شركتنا، مع تلك المشاكل المتفاقمة بين الشركاء .

الثامنة والربع ..

أضع حقيبتي فوق الحامل المعدني، أجلس على مقعدي البارد بجوار شخص بدين، كان يحظى بغفوة في المقعد المجاور لي، وهو شيء لم أستطع فعله يومًا، فالنوم في وسائل المواصلات لم يكن هبتي. وأمامنا امرأتان منتقبتان انهمكتا في حديث جانبي غير مسموع، كان يتخلله بعض الإشارات العصبية.

أحب دومًا السفر بالقطار، فللصحبة الآدمية سحرها، ومتابعة أوجه المسافرين تشبه اكتشاف عالم جديد. أحب أن أمتزج بالناس، أن أصير جزء من كل، أن أسافر على أنغام صوت القطار الرتيبة التي تقطع المسافات والزمن؛ لتحملنا إلى عالم أخر مختلف .

ركبت الدرجة المكيفة لا تشبه كثيرًا باقي الدرجات، فلن تجد من يقف بين المقاعد، ولن تحظى بالضجيج المعتاد، ولن تلاحظ تبدل البشر المستمر بين من يغادر ومن يصعد، ولكنها تبقى في النهاية جزء من هذا العالم المتحرك، والتي تحافظ على آدميتك إلى حد ما .

كنت أتمنى لو ركبت درجة عادية لأستمتع بالحضور البشري الكثيف الذي عزلني عنه استخدامي الدائم لسيارتي، إلا أنني وللأسف سأتوجه من محطة القطار إلى مقر تلك الشركة مباشرة، والمظهر مهم جدًا في هذه المرحلة، فأنا واجهة الشركة التي أعمل بها، ولا بد أن أكون على قدر المسئولية.

وهنا تذكرت تلك المشكلة السخيفة التي تهدد مستقبل الشركة بالكامل، وكل العاملين فيها.

فبمجرد موت الشريك الثالث بعد صراع طال مع المرض، دخل الشك بين الورثة ممثلين في الزوجة العنيدة، والشريكان الآخران، مما أدى

لتوقف العمل وعدم المبادرة للدخول في مشروعات جديدة للشركة، فتراكمت الديون، وبدأت الشركة تدخل في دائرة الخسائر.

وإن كان مديري المباشر (مستر ناجح) كما يحب أن يلقبه الموظفون والذي يحمل وظيفة المدير التنفيذي، يقاتل كي لا تهبط أسهم الشركة في الأسواق، وكان بهذا المشروع الضخم، يحاول أن يجبر الجميع على العودة للتفاهم قبل أن يتهاوى كل شيء.

وأتذكر في أسى مقولته شديدة البؤس التي ألقاها على مسامعي ذات يوم:

-إن قطع الأرزاق جريمة، وه ؤلاء الشركاء الحمقى يهددون بعنادهم استقرار مئات الأسر، ولا يهم كل منهم إلا إثبات وجهة نظره، وأنا لن أسمح بهذا.

دعوت الله في سري أن يوفقه لإنقاذ الشركة وموظفيها، ف انهيار كيان كهذا الصرح الضخم سيكون تأثيره مدمرًا على كل الأطراف.

القطار يتحرك ببطء مطلقًا صافرته المحذرة ثم يأخذ سرعته، وعلى المحطة أبصر بعض المودعين، وقد ارتسمت على وجوههم نظرة حزن، وكأن من رحل لن يعود.

ألمح بطرف عيني على المقعد الجانبي عاشقان يغافلان الناس، وتتلامس أيديهم في خجل، فأشيح عنهما بوجهي لأمنحهم بعض الخصوصية.

إن نصف ثقافات الشعوب تتكون عبر وسائل المواصلات، والقطار وسيلة مواصلات ملهمة جدًا، ولكنني كنت في عالم أخر من الأرقام والمخططات والهموم، فلم يصلني الإلهام، ولم أتمتع بسحره .

والهموم تجعلنا كثيرًا لا ننتبه لتفاصيل بسيطة قادرة على تغيير نظرتنا للحياة.

تململت في مقعدي المجاور للممر، لم أحظى هذه المرة بالجلوس بجوار النافذة، ولكن لا بأس أبدًا، فأنا لا أملك من الوقت ما يمكن أن أضيعه في التأمل ومراقبة البلدان التي يقطعها القطار في رحلته اليومية المتكررة .

انهمكت في مراجعة بعض التفاصيل الفنية والمالية، و استغرقني الأمر بشدة، وبعد ربع ساعة رفعت رأسي عن الأوراق، فوجدت الرجل البدين الذي كان يجلس بجواري قد غادر، مصطحبًا معه المرأتين دون أن أشعر بهم جميعًا، وكأنما كان وعيي في عالم أخر.

وللحظة تساءلت عن كنه ذلك الشخص الذي يركب القطار المكيف من أجل محطة واحدة، أم يا تُرى أجبره طارئ ما على العودة؟.

لم يستقر السؤال في رأسي سوى لحظات شعرت فيها بالتشتت، قبل أن تستيقظ حواسي مع رائحة العطر النفاذة التي طغت على المكان، لم يكن

العطر لمسافرة عابرة، مرت وتركت أريجها يداعب حواسي، بل كان العطر يفوح من بين ثنايا أرق إنسانة خطت بقدمها على ظهر الأرض.

كانت تلك الساحرة تستعد للجلوس أمامي كحلم كامل التجسد، وقد احتلت مكان المرأة المنتقبة بجوار الشباك الموصد في سكون وهدوء، وكأنها فراشة رقيقة حطت فوق أرض عالمي دون ضجيج، أو هبة نسيم عليل عبر من جواري في حذر، و استقر هناك ليحظى بدهشتي الأولى، وانبهاري .

رأيت ملامحها الرقيقة فتوترت..

شيء ما هزني من أعمق أعماقي فور أن وقع بصري عليها، فشعرت بروحي تتحرر من قيود جسدي لتغادرني هاربة، وتلوذ بها، وكأنما صب سحرها في كياني صبا، فلستولت على كامل انتباهي وتركيزي.

تأملتها للحظات دون وعي وعقلي شارد في عالم من الأمنيات، قبل أن أنتبه لوقاحة ما أقوم به، فتصنعت الانشغال بالأوراق التي أمامي، وأنا أرنو إليها ببصري بين لحظة وأخرى، محاذرًا أن يلمحني ذلك الشخص السمج الذي جلس منذ عدة دقائق بجواري، تصحبه زوجته التي جلست بجوار تلك الفاتنة التي خلبت لبي، وغرقت في النوم من فورها.

كانت ملامح الزوجة معجونة بالهموم حتى أثناء نومها، لا يبدو وأنها تحظى بحياة حقيقية مع ذلك الوغد وقح النظرات الذي تمدد بجواري ليبتلع الهواء كله، فأفسد قدسية اللحظة بلزوجته وفضوله ورائحة عرقه النفاذة.

نسيته أو تناسيته وتصنعت الانشغال بأوراقي وأنا أرمقها في وله.

كانت غائبة عما حولها، شا ردة العقل، سارحة في ملكوت أخر، تهمهم بكلمات غير مفهومة، عيناها ملتحمتان مع الأفق والحقول الممتدة إلى مدى البصر عبر زجاج النافذة، وعلى ركبتها يغفو ديوان شعر لفاروق جويدة مفتوح على قصيدة ما.

رؤيتها في لحظات شرودها عطرت كياني، وأجبرت كل مشاكلي وهمومي أن تتوارى خلف هيبة حضورها، ولأن الأرواح جنود مجندة، تآلفت روحي مع روحها منذ اللحظة الأولى، وتعزز بداخلي إحساس قوي، أن هذه الرقيقة سيكون لها شأن في حياتي.

نادرة هي تلك المرأة التي تخلب لب الرجل من النظرة الأولى، ودون أن تستخدم أسلحة جسدها وأنوثتها.

لابد وأن هذا الملاك الرقيق قد خرج من بين ثنايا دعوة أمي.. إنها أجمل أولاد الحلال وأكثرهم رقة .

كانت ملابسها أنيقة دون مبالغة. ترتدي بلوزة تركوازية اللون على سروال قماشي أسود، ومعطف من نفس اللون مكلل بالفراء عند جيدها، يهبط إلى قدمين كاملتي الاستدارة، احتواهما بوت أسود طويل تزينه مجموعة من الأشرطة الجلدية، ينسدل شعرها على كتفيها كليل ممتد، وينبعث منها عطر شانيل المميز، فجعلها كزهرة تفوح بالعبير. لتتألق أمام ناظري كلوحة مفعمة بالتفاصيل والحيوية والألوان، وكأن لا شيء يشبها إلا هي، ولا شيء يضيف لها، بل هي تضيف للوجود كله.

على جيدها تغفوا قلادة ذهبية تحمل حرف (L) باللغة الإنجليزية، جعل عقلي يحار للحظات في تخمين اسمها.

تأملت وجهها الرقيق برغم ضيقي من متابعة ذلك الشخص الثقيل لي، وغرقت في ملامحها.

ذلك الانحناء الدقيق عند شفتيها، أنفها الحاد الذي يليق بأميرة غجرية، شفتيها المرسومتان بدقة في انتظار لحظة العناق، حركة أصابعها المتوترة القلقة، روحها الشفافة التي انعكست على ملامحها فزادتها فتنة .

بصعوبة أبعدت بصري عنها، فلا أرغب في أن أسبب لها أو لنفسي أي حرج، خاصة وأن نظرات ذلك الثقيل أصبحت أكثر تطفلًا ووقاحة ولزوجة.

حاولت الاندماج مع أوراقي ومخططاتي، ولكني ضبطت نفسي دون وعي أتفرس في ملامحها من جديد. عيناي تمسحان تفاصيلها كرادار حي، خاصة وأن حركتها أصبحت قلقلة، وكأنها تجلس على مقعد من أشواك، أو أن ما يشغلها هو قضية كونية هامة ربما تتوقف عليها حياتها أو حياة كل البشر.

لا شيء يشغل ملاك مثلها إلا حدث جلل .

سمعتها تتنهد في قوة، وكأنها تطرد من داخلها بعض المشاعر السلبية. كانت تبدو لي كلغز عصي عن الحل وكنت على استعداد لأن أدفع نصف عمري لأعرف بماذا تفكر في هذه اللحظة!.

ساعتها لم أكن أعرف أنها شاعرة، وأن روحها حُبلى بالقصيدة، وأنها تمر بمرحلة المخاض، ولكن مشاهدتها في هذه الحالة الاستثنائية كانت متعة خالصة لروحي. إنها خارج الوجود والزمن، لحظة نادرًا ما يلتحم معها غريب، وبرغم ذلك كنت هناك.

لحظات وأخرجت من حقيبتها الجلدية مفكرة مزدانة بالزهور، وقلم رصاص يحمل صورة لإحدى جنيات البحر الوردية، ثم انهمكت في الكتابة لعدة دقائق بينهما لحظات توقف وشرود، وعينا ذلك الوقح تحاولان دون كلل اقتحام خصوصيتها، والوصول إلى كنه ما تكتب.

كانت تتنفس بسرعة وتلهث في توتر، وكأنها تمنح للأوراق جزء من روحها الشفافة.

اختلست النظر لما تكتب، فلم أستطع أن أرى ما يخطه قلمها الرقيق، الذي احتضنته أصابع من رخام تم الاعتناء بها جيدًا، وطلائها بطلاء شفاف، وزينها عدد من الخواتم ذات الفصوص الملونة .

خفت سرعة القطار ثم توقف في المحطة التالية ولم تتوقف هي عن الكتابة، وغادر الوقح مقعده بعد أن أيقظ زوجته التي كانت تغفو بجوارها، ولم يغادر قبل أن يمنحني نظرة كارهة، ويمنحها نظرة مليئة بالرغبة، أثارت ضيقها.

ذلك الحيوان لا يفكر إلا بغرائزه. مجرد رؤيته لفتاة جميلة وحيدة، منحه كل الحق للتطفل، وفرض النفس. لو كان الأمر بيدي لاقتلعت عين يه، كي لا يتطفل بها على ما يخصني.

يخصني ؟!!.

فاجأتني الكلمة وزلزلت أعصابي، وجعلتني أتساءل بيني وبين نفسي:

من أين نبعت تلك القناعة، وأي سبيل سلكته أفكاري وعقلي الباطن ؛ ليقررا شيئًا عجيبًا كهذا.

إن ما يحدث لي اليوم غير منطقي وغير عادي، وكأنني أنسلخ من جلدي وذاتي، وأركض نحو الجنون.

هذه الجميلة الشاردة تستحوذ الآن على اهتمامي بكل سهولة وكأنني مراهق لم يتجاوز الثامنة عشر ولم يعرف النساء من قبل، وقبلها كانت سلمى تبسط سيطرتها على ذكرياتي ومشاعري وكنت أهفو إليها وكأنما هي الحياة.

ما موقع قلبي من هذا الارتباك المتصاعد؟

ولماذا أشعر بروحي هشة إلى هذه الدرجة؟

هل وصل بي الاحتياج العاطفي إلى أن أسلم قلبي لأول عابرة سبيل صادفتني؟

غرقت في تفكير عميق لا يقود لشاطئ نجاة، وأفقت على عودة القطار للتحرك، فعدت أنظر إليها بكل لهفة وإجلال، وكل ما يدور في عقلي، أن شيئًا ما لا اسم له يجذبني إليها.

ذلك الشيء السحري الذي يربط بين الغرباء ويعدهم بالمستحيل.

انهمكت تلك الفاتنة لدقائق في تسويد الأوراق بما يمليه عليها الوحي، وعيناي تتشربان انحناءات جسدها،وحركات أطرافها العصبية، واختلاجات شفتيها المتوترتان.

obeikandi.com

وفي النهاية أطلقت تنهيدة حارة جعلت جسدي ينتفض، وأشعلت بداخلي الفضول والرغبة في الاقتراب منها ومؤازرتها في محنتها، فقارئ مخضرم مثلي يعرف أن الكتابة محنة، وتمنح أكثر مما تأخذ.

لمحت النشوة في عين يها، وهي تعيد قراءة ما كتبت وتضيف كلمة هنا وتحذف كلمة هناك حتى استقام لها بناء القصيدة، فظهر على وجهها سعادة الدنيا.

لقد تم الأمر أخيرًا، وحظيت الأوراق بطفلة جميلة، وبقصيدة تشربت عطرها وقلقها، وأنين روحها.

وهنا داهمتني فكرة موترة للأعصاب، جعلتني أعود لأتأمل أصابعها الرقيقة مجددًا باحثًا عن طوق ذهبي يربطها بشخص أخر، ويبعدها عن باقي الرجال إلى الأبد.

ولحسن الحظ لم أجد ذلك القيد كما تمنيت.

لحظتها شعرت بسعادة خفية، وغمر روحي إحساس عجيب بالراحة لم أستطع تفسيره في حينها.

فمن داخلي لم يكن هناك خطة أو ترتيب معين لخطوات تالية، إنني فقط أعيش هذا الحضور الساحر، ولم أكن أريد لأحد في الوجود أن يشاركني فيه، أو ينتزع مني هذا الحق.

ربما هي أنانية مطلقة مني أو أمنية تمنيت لوهلة أن تتحقق.

ففي لحظة مدهشة لا تفسير لها شعرت بأنها لي، وبأننا خلقنا لبعضنا، وبأن روحي أمام آلهة الجمال هذه، لن تطمح إلا للكمال، ولن تستقر وتهدأ إلا بالوصال.

وبأعماقي تساءلت:

هل عمي الرجال حقًا عن رؤية هذا الجمال الاستثنائي، أم أن القدر كان يحفظها لي حتى يتم اللقاء ؟!.

هل كان الأمر صدفة ؟!.

كم من صدفة كانت هي إرادة القدر الحقيقية .
ومن وسط أفكاري برزت صورة سلمى مجددًا كجرس إنذار أو تنبيه مبكر يحذرني من مغبة ما أنا مقبل عليه، لترتج روحي وسط نشوتها بما عايشته مع سلمى وما عانيته منها.
لن أنكر أنني كنت أشعر بقلق خفي.. فقلبي ينبض بمشاعر لم أختبرها منذ فترة طويلة، وما جبل عليه من حزن قد يجعل رد فعله عاطفيًا ومتسرعًا، فهل أنا قادر بالفعل على خوض تلك التجربة مرة أخرى؟.
هل أنا قادر على الحب ؟.
هل هو حب حقًا ؟!.

obeikandi.com

صدمتني أفكاري وتطورها بهذه السرعة، وأيقنت أنها لم تكن مجرد تنفيس عما يعتمل بداخلي من اضطراب وحيرة، بل كانت خطوة هامة للأمام في علاقتي مع نفسي، وعلاقتي مع سلمى.

فقلبي الذي شوش الاحتياج العاطفي بوصلته، لم يكن يفتقد وجود سلمى، بقدر ما كان يفتقد ذلك الإحساس الذي كان يصنعه وجودها.

لم يفرق الأحمق بين الحنين لشعور ما، والحنين لشخص كان مسؤلًا عن تأجج هذا الشعور.

لقد أدركت مما أخوضه الآن، أن حنيني لدفء امرأة تحتويني في ليلة موحشة كالليلة الفائتة، أيقظ الأحاسيس الدفينة بأعماقي، ولم يوقظ الحب.

فالحب كالأزهار يموت بسرعة لو لم يحظى بالرعاية والاهتمام الكافيان. وقلب سلمى لم يحتوي إلا على حبها لنفسها، وعشقها للتملك.

وكنت أنا مجرد فرصة لم تجد أفضل منها في حينها، ولما وجدت زهدتها ونبذتها، واستبدلتها بالأفضل من وجهة نظرها.

لا يوجد إهانة للحب ولا للجسد، أكثر من أن يوضعا في مزاد لمن يدفع أكثر ، فالعلاقات الإنسانية كالحب، لا تقدر بثمن، والثمن الوحيد الذي يمكن دفعه للحصول عليها، هو المزيد من الحب.

قاطع أفكاري مرور أحد الباعة الجائلين يعلن عن بضاعته بصوت أجش، وهو شيء غير معتاد في مثل هذه الدرجة أو هذا ما اعتقدته ، فعدت أتأملها في حذر بنظرات مختلسة، كراهب يتعبد في محراب جاذبيتها.

أراقبها كغريق يتطلع نحو طوق نجاة لا يدري هل يجرفه الموج إليه، أم يظل كأمل بعيد معلق في غمام الأفق. في حين كانت هي قد عادت لتأسرها كلمات فاروق جويدة، فزادها الاستغراق فتنة، مما جعلني أفكر:

كيف يمكن أن تجتمع البراءة والأنوثة في جسد واحد دون أن يطغى هذا على ذاك؟ كيف يمكن أن تجتمع الرقة مع ملامح تستفز كل رجولتي بكل هذه القوة دون أن تثير غرائزي؟ إن وجودها يشعل اللهيب في أعماقي، فهل أصير مجنون عشق أخر، أم ضحية لأمنية لم يكتب لها أن تكتمل ؟.

شتتني عنها للحظة مكالمة هاتفية تخص العمل من مدير فرع الشركة بالإسكندرية، وأثناء استغراقي في الحديث معه توقف القطار في المحطة التالية توقف عنيف مباغت، جعلني أتشبث بمقعدي في قوة وعيناي معلقتان بها، قبل أن تتعالى أصوات المسافرين الساخطة والمتبرمة .

ساد التوتر للحظات قبل أن يعود هدوء جزئي للمكان، مع عودة من استيقظ لنومه، وانهماك البعض في أحاديث جانبية عن قائد القطار المنتشي غير المنتبه، والذي فوجئ بلا ريب بأنه يعبر المحطة التي عليه التوقف فيها، فتوقف برعونة ليزعجهم ويقلق راحتهم.

لم أكن أصغي لأحاديثهم، ولم أشعر بالضيق نحو السائق، لقد كنت في ملكوت أخر.

ففي تلك اللحظة العنيفة التي توقف فيها القطار؛ سقط الديوان الذي كانت تحمله تلك الفاتنة بين المقاعد، ف اندفعت أصابعي لتلتقطه في سرعة وحرص وكأنه قد صار كتابًا مقدسًا لمجرد أن مسته أصابعها، قبل أن أقبض عليه في قوة، فتلتقي العيون دون موعد.

يا الله..

يا لها من لحظة مذهلة.. وكأن حياتي بدأت الآن .

كم ذبت في هذه اللحظة، وكم من حرائق اشتعلت في كياني، وكم من زلازل هزت أعماقي، وكم من صواعق ضربت مركز قلبي.

وللمرة الثانية في فترة وجيزة تغادرني روحي رغمًا عني ؛ لتقطع تلك المسافة الفاصلة بيننا، وتسكن هناك في سماء عيناها القلقتان، لتنصت لحديث طالما تلقت واشتاقت إليه. وفي هذه اللحظة الفاصلة القاهرة، شعرت بأن

هناك يدًا إلهية، قد بعثرت عطرها في كياني فتملكني، ولم أعد أملك من أمر نفسي شيئًا أمام فتنتها.

إن حديث العيون أصدق من أي حديث أخر.

وبداخل عقلي ترددت ترانيم من شعر الساحر نزار قباني :

(من أين أتيت، وكيف أتيت ، وكيف عصف بوجداني ؟!) .

ابتعدت عيناها الخجلى عن وجهي في سرعة، عندما صدمتها اللهفة الساكنة مقلتاي، فأحسست كأن روحي تغيب عني، وبنبض قلبي يضطرب.

ماذا يحدث لي؟.

كيف يمكن أن أشعر بكل هذا الانجذاب نحو إنسانة لم أرها إلا منذ دقائق معدودة؟

كيف تتوق روحي للامتزاج بروحها إلى هذا المدى؟

أي سحر ألقته علي لأنسى نفسي والدنيا، ولا أتذكر إلا وجودها ؟.

هل يمكن لشخص غريب لا تشعر بكونه غريبًا عنك، أن يوقظ روحك المتجمدة من ثباتها بمجرد وجودك في محيطه، ودون أن تتبادلا كلمة واحدة؟

obeikandl.com

وأن يعيدك للحياة لمجرد أن عيناه لمست جزء من روحك، فأحيتها؟.

تغلغل برد الخوف والاحتجاج بأعماقي، فتمنيت أن أضمها إلى صدري ؛ لتستكين روحي القلقة.

كانت عيناها تهبني سعادة طالما اشتقت إليها، بل حظيت بديلًا عنها بطعنة غادرة في القلب، وبشرخ في علاقتي بالعالم، حتى فقدت الثقة في كل شيء، وطُمر قلبي بداخل مدفن بارد مظلم، بعد أن كفر بالحب والنساء .

لم أكن غرًا ساذجًا ولا مراهقًا كي لا ألحظ ذلك التحول الذي اعتراني.

والشيء الموتر للأعصاب وقتها أنني لم أستطع كبح جماح نفسي أو الإنصات لصوت العقل الذي ذاق معي الأمرين من قبل.

بل تبعت نبض قلبي المكلوم الظامئ للعشق. وبكل مشاعر المجروحين والصابرين والحالمين بفرصة ثانية للحياة بعد سنوات من التيه، ناولتها الديوان قائلًا :

- " تفضلي ".

ابتسمت في عذوبة، وقالت في خجل زادها فتنة :

- " شكرًا ".

تلامست أصابعنا عن غير عمد، فعصف بي الدوار، وسمعت قلبي يتنفس بعد أن تراكم الرماد في حناياه.

لا لن ينتهي الحديث عند هذه النقطة .

- " أهو لفاروق جويدة ؟ ".

بكل رقة تجيب :

- " نعم هو لفاروق جويدة، ديوان أخر ليالي الحلم.. هل لديك رغبة في تصفحه ؟!".

تناولته منها وكأنه دعوة للحياة، ولاحظت أنها تتأملني بخجل أثناء تصفحي للديوان ورجفة الارتباك تجتاح محياها.

جعلني هذا الفعل ابتسم في أعماقي، دون أن أظهر على وجهي رد فعلي تجاه فضولها، وأكملت تظاهري بقراءة الديوان الذي لم أعي منه حرفًا، ولكي أمد جسور الحديث أكثر توقفت عن القراءة وسألتها:

- هل تهتمين بالشعر كقارئة، أم كاتبة أيضًا، اعذري تطفلي فقد لمحتك منذ لحظات، وأنت منهمكة في كتابة ما يشبه القصيدة!.

ابتسمت في خجل قبل أن تقول :

obeikandl.com

- لبنى درويش..شاعرة مبتدئة، نُشر لي في الأسواق ديوانين متوسطي الشهرة. محاولات جادة لو أردت تصنيفها لكتابة شيء مختلف.

وضعت الديوان جانبًا، وعرفتها بنفسي :

- سامح صلاح، مهندس معماري، ومهتم جدًا بعالم الأدب والأدباء، ولكني للأسف لم أقرأ لك من قبل، قد يكون لعيب مني فأنا لم أزر مكتبة منذ عام كامل؛ مكتفيًا بعملي وما عندي من كتب.

هزت رأسها في تفهم قبل أن تقول :

- الحقيقة أن الشعر هذه الأيام يمر بمحنة عظيمة، فالإقبال عليه ضعيف، ودور النشر تنشره على مضض، ولا تقبله في النهاية المكتبات الكبرى؛ ليصبح كالعملة منتهية الصلاحية غير متداول بجدية.

قالتها ثم صمتت قليلًا لتعبث بعدها في حقيبتها، قبل أن تخرج نسخة من ديوانها لتمنحها لي، قائلة :

- هذه نسخة إضافية من ديواني الأخير، يسعدني أن أهديها لشخص مثقف مثلك، وعنوان بريدي الإلكتروني، ورابط صفحتي على الفيس بوك، في نهاية الديوان، وسأنتظر رأيك.

تناولت النسخة منها، وقلبي يرقص طربًا، ما أروع تدابير القدر، لم يمنحني لقاء معها فقط، بل منحني لقاء أخر مؤجلًا، فقلت بحماس :

- بالتأكيد ورأيي سيصلك بمجرد انتهائي منه، وإن كان الكتاب يظهر من عنوانه.

ابتسمت في خجل، وقالت بصوتها العذب :

- أتمنى من كل قلبي أنا يروق لك .

تأملت الديوان، كان عنوانه رقيقيًا، وكلاسيكيًا، وموحيًا ككاتبته: (تانجو) .

تجاوزت العنوان ثم بدأت بأول قصيدة في الديوان ، وكانت بعنوان (عاشقة)، وقرأت منها جزء بصوت مسموع مليء بالتأثر:

" وتركت خلفي كل قيودي وسافرت .

ومن دنيا البشر لدنيا عينيك هاجرت.

عصفورة تمضي إليك .

تكسرت أجنحتي ، فطارت الروح بين يديك .

لم تنكر الأقدار أني خلقت لتضمني ذراعيك .

أنا نصفك الأخر، والذي لا يكتمل إلا بك.

فبعد أن أسرتني رجولتك، لا أبحث عن عتق منك ".

وعندما توقفت عن القراءة تأثرًا، وتهدجت أنفاسي، أكملت هي بصوتها الرخيم الذي تغلغل داخل روحي، ومنحني السكينة :

إنني العاشقة ، والحالمة، وطفلتك التي تغفو بين ذراعيك.

لم أبحث يومًا عن حلمي، فهو متجسد في ابتسامة شفتيك .

آه لو تضمني وقت الغروب؛ ليشرق كوني من بين راحتيك .

آه لو تمنحني الوصال؛ لأحتمي من ضربات الزمن بين مقلتيك .

ذبت مع صوتها ومع الكلمات الدافئة، ولم أستطع منع نفسي فور انتهائها أن أصفق في جزل كالأطفال، وأنا أردد دون وعي :

- رائع جدًا يا لبني.. رائع، إن إلقاءك ساحر.

تورد وجهها بحمرة الخجل، وقالت بصوت كله حياء :

- شكرًا جزيلا يا باشمهندس، ولو أعجبك الإلقاء، فعندي ندوة شعرية وحفل توقيع اليوم، تبدأ في الساعة الخامسة، في مكتبة (...) وأتمنى لو تشرفني بحضورك .

موعد ثالث بلا ترتيب.

لا يمكن أن تكون العلامات والإشارات أكثر وضوحًا من ذلك. إن القدر يمهد لي طريق السعادة، وكل الحماقة ألا أتتبع خطواته .

obeikandl.com

وصل القطار إلى محطة سيدي جابر، لتغادر هي، ومعها قلبي الأسير.

وجلست أنا وحيدًا في القطار الذي أصبح أكثر وحشة بعد أن فارقته، لأغادره في المحطة التالية، بعد أن لملمت أوراقي، وروحي التي تناثرت في الأرجاء، وفي رأسي تدوي كلمات إحدى قصائدها :

لقاءنا فرحة وحياة ..

وفراقنا قدر وموت

فهل بعد الرحيل حياة ..

وهل بعد الوصال موت

obeikandl.com

-3-

ظلت روحي مشبعة بعطرها طوال اليوم، وصحبني طيفها فلم يتركني لحظة واحدة. وتمتعت أنا بهذا القرب الافتراضي.

فمن رحمة الله تعالى أن هناك أشخاص لا تشعر بعد مغادرتهم لك بالوحدة، فهم يلمسوننا برقة حضورهم مهما بعدت المسافات وطال الزمن.

وكانت هي تملك هذه الميزة العظيمة، فلم أشعر للحظة واحدة أنها غادرتني، وكلما خلوت بنفسي طرفة عين، كنت أضبطني متلبسًا بفعل الحنين، متماهيًا مع أمنيات كنت أظنها منذ ساعات مستحيلة التحقق؛ وسط الفوضى والخراب الذي حل بعالمي، قبل أن ألقاها.

كانت كالسماء قادرة على احتواء حيرتي وتلهفي وجنوني حتى في بعدها.

وما تراكم بداخل أوردتي من حزن عبر الشهور الماضية، كان يتبخر ويحل محله إحساس مدهش كزرقة البحر، واتساع المدى، ونكهة الوصول لبر آمن بعد قرون من ضياع.

فكنت أختلس الابتسامة من قلب غيبوبتي، وصورتها وحدها تتجلى في سمائي كقمر ساطع.

لأدرك متأخرًا جدًا، أنني على يديها أتحرر من كل قيود الماضي وانكساراته وبؤسه، ومن الكذبة التي بددت أجمل أيام حياتي.

ومن قيد وضعته سلمى ذات يوم حول عنقي بخدعة محكمة كانت تطلق عليها حبًّا.

اليوم رأيت نفسي مختلفًا، وأحببت ما رأيت، فصرت شعلة من الحماس والحيوية، وبداخلي رغبة أن أصير أفضل لعلني أليق بعظمة ذلك التغير.

في منتصف اليوم غادرت مقر الشركة العملاقة بصحبة بعض مهندسي شركتي من فرع الإسكندرية، واللذين حضروا بصحبتي في الموعد المحدد، فالعدد الكبير في مثل هذه المقابلات، كثيرًا ما يوحي بين الشركات بالاهتمام والرغبة في التعامل وتوثيق العلاقات.

وحقق هذا الحشد أو (الشو) كما يطلق عليه مستر ناجح رئيسي المباشر مهمته على أكمل وجه .

فبعد ساعات من النقاش والجدال بيني وبين مهندسي الشركة، تم الأمر بطريقة أسهل وأسرع مما كنت أتمنى، فقد حظي المخطط بالقبول الشديد لديهم وتكلل عملي بالنجاح.

فقط بعض الملاحظات التي يمكن تداركها وتعدلها ؛ لتحظي شركتي بمشروع ضخم ربما هو الأول من نوعه في تاريخها .

obeikandl.com

تملصت بالطبع من دعوة مهندسي فرع الإسكندرية للغداء، وقضاء باقي اليوم معهم للاحتفال فبعضهم يرقى لمرتبة الصداقة عندي.

كنت أريد بعض الخلوة لنفسي، لأحظى ببعض الراحة، وأسعد بما عملت وأنجزت، وقبلها أطمئن على أحوال قلبي، الذي مازال ينبض من الصباح بنبض خاص ، بعد أن عاد من احتضاره .

هاتفت مستر ناجح، وطلبت منه إجازة ليومين لظروف خاصة تدعى لبنى، ولم يمانع بالطبع، بعد أن شكرني على مجهودي، وأثنى على عملي.

وعندما أنهيت المكالمة تنسمت هواء البحر البارد القريب، وعبقت جسدي باليود، وعندما هممت بوضع الهاتف في جيبي اصطدمت يدي بالديوان، وعادت لبنى لتخطفني، ولتحتل كامل عالمي .

وفي لحظة واحدة عاد عطرها ليتسلل إلى أنفي، وعادت ملامحها الرقيقة لتحتل كياني، وصوتها العذب ليداعب أذني.

وفي هذه اللحظة لا أعرف لماذا تذكرت صورة سلمى، والتي لم أجرؤ يومًا على إخراجها من حافظتي، وكأنني كنت أتشبث بأمل واه في عودة، أو أن قلبي لم يرفض الأمر كليًّا برغم ما مررت به من معاناة وإهانة وإذلال.

تأملت صورة سلمى للحظة بلا مشاعر، أو أي رد فعل.

شيء ما تبدل فيها، وفي نظرتي لها .

لم يعد للصورة تأثيرها السابق، وأصبحت باهتة كعشق صاحبتها، الذي تلاشى من قلبي وكأنه لم يكن، كمعجزة أعجز عن تفسيرها.

لقد كانت سلمى في وقت ما الهواء الذي أتنفسه، الشمس التي لا يشرق يومي بدونها، الحب الأول بكل بهائه، وعنفوانه، وجنونه.

والآن لاشيء.

فبعد كل انفعالات الليلة الماضية التي أشعلها الحنين والشتاء وتدفق الذكريات، جاءت لبنى بكل بساطتها ورقتها، لتزيح وهمها من قلبي ، وتحتل هي مكانها.

ودون وعي مني أخذ عقلي يعقد المقارنات بين لبنى وسلمى، وساعتها أيقنت أن الأنثى نوعان.

أنثى تجعلك ثملًا بالحياة والفرح، وأنثى تجعلك مفعم بالموت والكآبة.

مع سلمى كنت أفقد جز ء من روحي في كل لقاء، حتى صار قلبي يفوح برائحة الموت والكآبة، بينما لقاء قصير مع لبنى منحني قبلة الحياة وسعادة عُمر كامل قادم.

لن تصلح المقارنة يومًا بين الجنة والنار.

بين البصر، والعمى .

obeikandi.com

مرآة الحب عمياء، ولو لم يهدك الله لقلب مبصر ؛ لتحولت دنياك لحفرة مظلمة لا قرار لها، ولصرت سجين لعشق يأكل من روحك وجسدك دون أن يهبك الأمان .

إن أسوأ شيء في العالم أن يخونك تقديرك لمن تهبه مصيرك ومستقبلك، فتستسلم وتسير دون إرادة خلف قلبك الذي لم يعد يبصر الخطأ من الصواب، فتتنازل عن بعض من رجولتك، أمام ضعف أنثوي يتم استغلاله نحوك في أبشع صورة.

كانت سلمى ناعمة كالأفعى قاتلة كسمها، لغت إرادتي وسيطرت على قراراتي، فصرت تابعًا لها مغيبًا في دروب هواها، ففقدت أمام سطوتها ونعومتها كل مميزات الرجل الشرقي ، وجزء كبير من شخصيتي التي ضعفت في وجودها.

وليت الأمر اقتصر على هذه النقطة فحسب، فبعد أن تكللت علاقتنا بالخطوبة، باعتني مع أول ثري ظهر في حياتها بعدي .

ولولا الصدفة، التي جعلت إحدى بنات عائلتي تراها مع ذلك الثري في أحد النوادي، فعادت لتخبرني، لربما ارتبطا رسميا قبل انفصالي عنها.

والأدهى أنه عندما صارحتها بما عرفت لم تنكر تلك الوقحة الأمر، بل تمادت في الاستهانة بمشاعري والتحقير من شخصي وظروفي التي تتمناها

أي أنثى لديها بعض من القناعة، وكان مبررها أنها لا تمتلك إلا حياة واحدة تريد أن تحياها كما تخطط لها، لا كما ستجبرها عليها ظروفي.

كانت حقيرة وكنت أحبها أكثر من روحي ذاتها.

بل كنت أعشقها برغم كل مساوئها وتأثيرها المرهق على روحي، وسلاطة لسانها، وبرغم أن أمي لم تكن مستريحة لها ولا لشخصيتها، ولا لأسرتها، ولا طريقتها الوقحة التي محت شخصيتي.

ليتطور الأمر في إحدى مشاجراتنا التي لم تبدأ إلا مع دخول سلمى لحياتنا، لتطلب مني تلك العزيزة المقهورة فسخ خطبتي من سلمى، بل وصارحتني أنها لا تقبل أن تتحكم في شئون ابنها امرأة مهما كانت مكانتها لديه.

لم تكن تدمر شخصيتي فقط، بل كانت تدمر حياتي، لأنها تدرك كم أحبها.

وهذا الحب الأعمى كاد أن يجعلني أغفر لها، بعد أن نبذها ذلك الثري فعادت لتطاردني بعد انفصال مهين، وهي توجه كل أسلحتها الأنثوية نحو نقاط ضعفي.

وكدت أن أضعف بالفعل!.

لولا أن مستر ناجح والذي أعتبره أكثر من والد وصديق، تصدى لي، وعنفني، قبل أن يصدمني برأيه فيها:

- إنها لم تحفظ وجودك، فكيف ستحفظ غيابك، وكيف ستأمن لها. لا تشترى القلق وتعب البال لنفسك، فالحياة أثمن من أن تمنحها لمن هي بوضاعتها، كن رجلا ، ولا تخسر كل شيء من أجل وهم لا يوجد إلا بعقلك.

كانت كلماته كالماء البارد الذي صب فوق رأسي فأيقظ عقلي من غفوته وسيطرتها، وجعلني أرفضها ولا أغفر لها، برغم ما كان يجتاح قلبي وكياني من أعاصير وتردد وقتها، فهي كانت حبي الأول، وبكل جدارة أصبحت جرحي الأول .

لقد تعلمت الدرس بالطريقة الصعبة، فلا يمكن مهما كان المبرر أن تجامل بقلبك أو حبك.

اللحظة التي لا تشعر فيها بأن من تمنحه قلبك لا يبادلك نفس المشاعر.. غادر.

عش الألم.. الوجع.. الخذلان.. وبعدها أبحث عن من يستحق ، فالقلوب أسمى من أن توضع في لعبة مساومة حقيرة.

ومن يتنازل كي يحظى بإنسان يعشقه، سيأتي الدور على ذلك الإنسان ويتنازل عنه، وفي النهاية سيتنازل هو عنه رغمًا عن إرادته، بعد أن يكون قد فقد مساحة كبيرة من كرامته واحترامه لنفسه .

في الحالات المماثلة إن لم يكن هناك بُد فعليك أن تقمع قلبك، فموته بيدك أطهر ألف مرة، من نزيف لا يتوقف أو ينتهي.

فالقلوب المحتلة لا بد لها أن تنكسر وتحترق لتتطهر من آثام الحب القديم.

شعرت بغصة ومرارة في حلقي، وأنا أنظر لصورة سلمى، و انتابني إحساس مظلم بأنني أخون نفسي ورجولتي معها.

وبكل هدوء وبيقين تام أخرجت قداحتي وأشعلت النار في الصورة، وشاهدتها وهي تتحول لرماد أسود فرقته الريح وغمرته الأمطار، لأشعر بروحي تتحرر، وكل ذكرى داهمتني من قبل تتلاشى من كياني كغيمة شتاء مقبضه، ودعتها بغير أسف.

وعلى الفور احتلت لبنى كل مساحة منها، فتبدل حالي من النقيض إلى النقيض.

لا يمكن مقارنة لبنى الرقيقة بسلمى الوقحة، عقد المقارنة من الأساس ظلم بين وإجحاف.

obeikandl.com

البحر يموج أمامي مع الريح القوية التي بدأت تسوق أمامها السحب، لتتكحل السماء بلونها الرمادي، فأتنسم الهواء البارد المشبع باليود لعله يخفف من وطأة حرارة قلبي، قبل أن أمنح للأفق ابتسامة، ليجيبني هو بسيول منهمرة من المطر أغرقت ثيابي.

توجهت على أثرها مهرولًا صوب المظلة الحجرية القريبة، والتي تتواجد كتصميم موحد على امتداد الكورنيش، ثم وقفت أتأمل البحر لخمس دقائق كاملة وعقلي سارح في دنيا غير الدنيا.

ماذا أخبرته، وماذا أخبرني ؟.

هذا سرنا المشترك الذي لا يمكن البوح به.

جلست أمام البحر أتصفح الديوان، وقلبي يخفق في عنف.. نسيت كل شيء حولي إلا موسيقى البحر وكلماتها، وما أعذبها كلمات :

لقد خُلقت من أجلك

ومن أجلك فقط ..خُلقت الحياة

ساعة كاملة قضيتها في الإنصات لموسيقى المطر وقراءة أشعارها، وقصائدها.

ساعة كاملة مرت كالحلم وأنا أهيم في عوالم نبعت من قلب شاعرة حالمة، منحت للكلمات عبقها ودفئها، وفلسفتها، ونظرتها للحياة والعشق والموت.

استولت علي الكلمات، كما استولت علي صاحبتها من قبل، وبعد ساعة أخرى كنت قد انتهيت من قراءة الديوان للمرة الثانية، وهذه المرة قرأت القصائد بتركيز أكبر.

كنت أبحث عن روحها بين الكلمات، أفتش عن أسرارها، عن كلمة تركتها لي بين السطور، عن تلك الرسائل الخفية التي خطتها ذات يوم وطيفي يحوم حولها متمنيًا اللقاء.

توقف المطر ولم أتوقف أنا عن البحث، وكلما شعرت أن هناك ما يمسني أو يخصني من أبياتها، وضعت تحته خط بقلمي لأعود إليه، وفي النهاية، أعدت قراءة كل ما حددته مرة أخرى بالقلم قبل أن أبتسم.

فبأعماقي أيقنت أن كل رسائل الحب التي تحتويها الأوراق، كانت مرسلة لي أنا.

لا عجب في هذا..

إنها قناعتي الخاصة.

لقد كنت موجودًا بشكل ما بين كلماتها، والتقينا قبل أن نلتقي، وربما أيضا ضممتها بين جدران إحدى القصائد وذبنا في العناق.

لم أكن حالمًا أو مغامرًا، ولكنها بدلت في لقاء واحد من تركيبتي الشخصية والنفسية، ما عجزت عنه شهور طوال من محاولات النسيان والفكاك من أسر الذكريات، حتى إنه دار في عقلي حوار عجيب، آمنت بكونه نبوءة لا سبيل لها إلا أن تتحقق.

بل و تمنيت من أعمق أعماقي أن تتحقق .

- لبنى .. هل تقابلنا من قبل؟.
- لا أعتقد أنه حدث، برغم أن قلبي يخبرني أنك لست بغريب عني.
- هل من المعقول أن يتشابه إحساسنا إلى هذه الدرجة ؟!.
- بالتأكيد.. فالأرواح تتلاقى دون شك في ملكوتها قبل اللقاء الحقيقي.
- هل تدركين أني سأحبك ؟.
- متأكدة..
- ولماذا هذا اليقين؟!.
- لأنني أعيش هذا الإحساس بالفعل.
- ولكننا لم نتقابل إلا منذ ساعات قليلة !
-أرواحنا تقابلت منذ سنوات.

obeikandl.com

ساعتها أدركت كيف حاز مجنون ليلى على لقبه، وكيف فضل أن يهيم على وجهه في الصحراء كالمجاذيب، على أن يظل عاقلًا في عالم تغيب عنه حبيبته.

وفي لحظة فارقة أدركت وأنا أمام البحر أحتضن كلماتها، أنني غارق في حبها حتى النخاع .

لقد أغرمت بها.. وشهد البحر.. وأمنت روحي.

فلا سبيل إلا الوصال..

***

كان علي أن أجد مكانًا للمبيت، وبحقيبتي كانت تقبع أوراقي ومنامتي، وقميص وحيد وبلوفر. لم أتوقع المبيت لليلتين، ولكن ما بها يكفي.

قمت باستئجار إحدى الشقق المفروشة التى تطل على البحر بالقرب من بئر مسعود، كان الايجار بخساً مقارنة بقيمته فى فصل الصيف وكان منظر البحر تحت شلالات المطر سائحاً.

هاتفت أمي وطمأنتها على أحوالي وأخبرتها بالإجازة، فدعت لي، ومنحتني عدد من النصائح التي تفيد في مواجهة هذا الطقس البارد، وأكدت أكثر من مرة على تناولي الطعام الذي نسيته تماما في خضم انفعالاتي.

أويت إلى الفراش مباشرة، كان علي أن أستريح قليلًا قبل أن أتوجه لموعدي معها، وأساندها في حفلة التوقيع التي ستكلل بالنجاح ما بذلته لبنى من مجهود في ذلك الديوان الرائع، وستعيدني لفترة مميزة من حياتي كنت فيها أدمن الحبر والأوراق، وأتتبع أخبار كتابي المفضلين، قبل أن تختطفني منها مسئولياتي وانكساراتي.

كان نومي قلقًا وغير مريح، فكيف ينام جسدي وقلبي وعقلي يقظان يتنازعان، ويتقلبان كتقلب الليل والنهار. كم فاجأني قلبي بكل هذا الكم من المشاعر المكبوتة التي تحررت أخيرًا. روحي ممتلئة بالخوف، والقلق، واللهفة، والشوق، والضعف، والقسوة، والدهشة.
كم أنا متورط أمام نفسي بهذا الشعور الذي لا أستطيع تقنينه أو كبح جماحه.

كيف امتلكتني وملأتني، وجعلتني أغرق تحت طوفان الشوق، بل وأرفع رايتي وأسلم نفسي ؟

كيف في كل مرة أقاوم فيها أزداد سقوطًا وغرقًا ؟

بل كيف فتحت روحي المغلقة أبوابها لهذا الغزو ؟

هل يعقل من احترق بالنار أن يأمن لها من جديد ؟ هل يمكن أن يصفح عن الماضي وذاته ليبدأ حياة جديدة ؟

لم يعد الفراش مريحًا، ولم يعد النوم متاحًا، وتمزقت روحي بين التردد واللهفة، فأغثت روحي بالصلاة، وفوجئت بنفسي أدعو الله في سجودي أن تكون لي.

عدت لفراشي وقد صفت روحي قليلًا، وفور أن وضعت رأسي على الوسادة رحت في سبات عميق.

وفي عالم الأحلام كانت لبنى هناك. حاضرة وفاتنة وآسرة ومفعمة بالأنوثة، ومعها قضيت عدة حيوات متشابكة، نتحدث، ونمزح، ونتناجى. حتى أنها ناقشتني في التعديلات المطلوبة على مخططات المشروع الجديد، وكيف نقنع الشركاء بالعودة، ومد جسور الثقة والتعاون بينهم.

لقد تغلغلت لبنى في روحي وكياني وسكنت عقلي، وكل تفاصيلي. فجعلتني سعيدًا كما لم يحدث لي من قبل.

طعم الفرح نفسه كان مختلفًا. لأنني افتقدته منذ زمن طويل.. ربما رحل مع سلمى، ولكنه عاد مع لبنى.

فالله لا يأخذ منك شيء تحبه، إلا ويعوضه بشيء يحبه لك.

***

أعددت لنفسي كوبًا ساخنًا من القهوة السوداء بدون سكر كما أحب تناولها، مرارة القهوة منبهة.

والقهوة عامة تشبه الحياة؛ لا تمنحك النشوة إلا مخلوطة بالمرارة.

عدت لغرفة النوم وتناولت الديوان من فوق الكومود المجاور للفراش، وخلف زجاج الشرفة المغلق، جلست على المقعد سارحًا أتأمل القصائد والمطر، مطلقًا لأفكاري العنان .

وجودي وحدي في هذا المكان المنعزل عن كل ما أشعر معه بالحميمة، كان له تأثير صاخب ومزعج على روحي.

عشرون صوت بداخلي يتحدثون، ويصرخون، ويحذرون في وقت واحد، وكل فكرة حمقاء يطرحها عقلي تتلاشى في العدم كزبد البحر.

كنت أحاول أن أتشبث بأي أرض صلبة أركن إليها، وأبدأ منها لأتخلص من ذلك الاضطراب الذي يعيث تفتيتًا في كياني.

إنني متأكد من شيء واحد فقط؛ أنه عندما رأيت لبنى وتحدثنا، تحرك قلبي من أجلها. لم يكن إحساسًا عاديًا، أو مخادعًا.

والمشكلة هنا أنني لا أعرف، هل أستسلم لذلك الإحساس المربك المتعمق بداخلي بجنون، أم أعود إلى القاهرة دون لقائها، ودون أن أكرر تجربتي المريرة مجددًا.

obeikandi.com

الحب ليس قرار، الحب قدر، ويحدث دون إرادة منا، البُعد هو القرار الأصعب والأخطر. فالوجع يطال الرجال كما يطال النساء، ويخشى الاثنان من فاجعة تكراره.

وتجربة الحب الفاشلة الأولى، تترك في الروح غصة ومرارة، تجعلنا نوقن أن كل تجربة قادمة ستفشل لا محالة، ولن نستطع فيها أن نقدم للطرف الأخر حب صادق وكامل ومشبع.

فمهما كانت كراهيتنا لمن خذلنا فإنه رغمًا عنا يظل يمتلك جزء من قلبنا، ربما يكون قد مات، ولكنه يمتلكه برغم كل شيء .

تجرعت مرارة القهوة، ومرارة ترددي وخوفي، ودون مقدمات ارتديت ملابسي لألحق بموعدي مع لبنى .

خرجت من الشقة، وجسدي يرتجف من البرد والتوتر، وقفت لعدة دقائق أنتظر سيارة أجرة تمر، والرياح الباردة تكاد تقتلعني من مكاني اقتلاعًا، وفي عقلي يتردد سؤال واحد بإلحاح:

هل أخاف الحب، أم أخاف الفشل ؟.

بالفعل كنت أخاف الفشل في الحب، فهو تجربة مريرة مزلزلة ومذلة، خاصة مع شخصيتي العطشى المتلهفة والتي تنغمس فيه بكل كيانها.

أخاف أن أكون تسرعت أو تسرع قلبي في حكمه وقراره، فعقلي دون شك خارج نطاق التحكم أو السيطرة.

دقائق وأقبلت سيارة أجرة يقودها سائق عجوز أجبرته الحاجة للخروج للعمل في مثل هذا الجو العاصف، وعندما أخبرته عن العنوان انطلق بالسيارة على الفور، وعيناه معلقتان بمساحتي السيارة اللتان تجاهدان السيول المنهمرة.

لماذا لم أطلب سيارة أجرة عبر تطبيق الهاتف المحمول كما فعلت في القاهرة ؟.

الإجابة بالطبع معروفة ، لقد اضطرب كل شيء بوجداني، وما أحاول قهره، سيهزمني لو ترددت ولم أتحرك إليها على الفور.

وعلى كل حال كان السائق صامتًا على عكس عادة سائقي التاكسي هذه الأيام، والذين يفوقون النساء في النميمة واستعراض المعلومات ونقد كل شيء، وهذا ناسبني جدًّا لأنني كنت في حاجة لأنظم أفكاري وأستعيد اتزاني .

ركز السائق في القيادة، وركزت أنا في الطريق، وعاد سحر الإسكندرية ليستولي علي.

المطر يغمر الكورنيش، وبرغم ذلك لن تعدم عاشقان يتناولان الآيس كريم ، وقد زينت وجوههم البسمة، وستصطدم بعدد المبتهجين على الشواطئ والمقاهي.

لا يمكن لبرد مهما كانت قوته أن يبدد شعور الدفء المتغلغل عبر القلوب، والمشع في العيون .

استغرق الطريق وقتًا أطول مما توقعت، فانتهزت الفرصة لأرد على رسائل التهنئة التي أرسها لي زملائي بالعمل عبر الواتس أب، في محاولة للهروب من سيطرة الأفكار السلبية على عقلي.

وبعد أكثر من نصف ساعة وصلت لمكان المكتبة، فنقدت السائق أجرته وبقشيش سخي، رسم على وجهه ابتسامة انتقلت إلى روحي مباشرة.

وعندما عبرت الباب الزجاجي تعلقت عيناي بالأرفف المزينة بالكتب والمجلدات، وعاد شغفي القديم للقراءة واقتناء الكتب.

منظر المكتبة وحده يؤنس الروح. ورائحة الحبر والورق المطبوع يتفوق في أنفي على رائحة أغلى العطور، وأكثر منها تماسًا مع الروح.

وبحدس قارئ سابق، عثرت على مكان انعقاد الندوة، وعندما لمست قربها، اندفعت صوب المكان وكأن لها جاذبيتها الخاصة، التي فاقت جاذبية الأرض والكتب والإسكندرية.

obeikandl.com

لمحتها جالسة على مقعدها خلف الطاولة التي رصت فوقها بشكل فني جميل بعض من إصدارتها، وعلى يسارها يجلس ناقد فني متوسط الشهرة، وعلى يمينها شاعر شاب شهير، وبينهما كانت لبنى كزهرة متوجة بين صخرتين مكفهرتين.

وللحظة شعرت بالغيرة، وخفق قلبي كما لم يخفق من قبل، ودون وعي صدرت مني شهقة أخفاها صوت الناقد الخارج من الميكرفون، والذي كان يقول:

-" تتمتع قصائد لبنى بالأصالة، والفلسفة العميقة، حتى الموت تكتب عنه وكأنها تعيد اكتشافه، لدرجة تجعلك تتعلق به، كما تتعلق بالحياة".

اخترت مقعدًا جانبيًا يجعلها أمامي طوال الوقت، وكان هذا تحديًا حقيقًا لقلبي المنفعل، ثم ذبت مع كلماتها وانفعالاتها ورقتها.

لم يكن الحضور كثيفًا ولكنه لم يكن ضعيفًا..إنها تصنع جمهورها ببطء ولكن بثقة، كما أن للشتاء والبرد دور حقيقي في قلة الحضور.

وعندما تلاقت أعيننا توقفت للحظة عما تقوم بإلقائه، وابتسمت لي قبل أن يتخضب وجهها بحمرة الخجل وتعود لإلقاء قصيدتها بحماس أكبر، حاولت به أن تخفي توترها وفرحتها بحضوري .

هل توقف الزمن ساعتها؟. هل تبدلت قوانين الحياة، فصرت أتنفسها وأحياها من بعد موت وبعث.؟

لم أكن بحاجة لأي إجابات فهي الإجابة عن كل شيء . كان تأثيرها علي روحي كاسحًا كطوفان نوح، مدهشًا كعصا موسى، آسرًا كفتنة يوسف، مرهقًا كصبر أيوب، فطفقت أنظر نحوها كالمسحور.

لقد استحوذت علي رقتها، وقيدتني جاذبيتها، فأين المفر؟!.

ومع ابتسامتها عبرت سحابة معطرة سماء روحي، وتمنيت لو أني أعلنتها صراحة وسط الحضور:

- إني أحبك ..أحبك كما لن يحبك إنسان في الوجود .

ولكنني اكتفيت بوجودها، والبشر الذي هلل وجهها عند رؤيتي، لقد كانت سعيدة بالفعل لقدومي، وربما كانت تنتظره.

وبيقين كامل أدركت أنه لا يمكن أن توضع لبنى وسلمى في كفة واحدة .

البراءة مقابل الصلف والغرور..

الرقة مقابل العناد والخشونة ..

لمحتها تختلس النظر نحوي، كلما شعرت بأن العيون لا ترصدها، فهاجت المشاعر في روحي أكثر. وعندما أتت عند أبيات محددة في إحدى قصائدها

obeikandl.com

نظرت لي بثبات وجرأة، فخفق قلبي في عنف منتظرًا رسالتها القادمة، فقالت بصوت متهدج مليء بالتأثر والآمال:

لا لم يفت الوقت بعد، مازلنا سويًا عبر الطريق، ننتظر اللقاء .

أنت لي، وأنا لك، والكون دوننا عدم وهباء.

أنت لي، فما جدوى كل الأشياء .

وفي هذه اللحظة أدركت عن يقين تام أن عصا العشق الساحرة التي مستني قد مستها، وأن كل تفكير منطقي لا جدوى منه..

نحن عاشقان ..

مغرمان ..

وعلي فقط أن أنصت لنداء قلبي، وأخبرها بحقيقة مشاعري نحوها، فالعيون فضحت كل شيء.

لم يعد هناك مجال إلا أن يصارح كل منا الأخر، فقط سعيد الحظ منا من سيتقدم أولًا لينال شرف المبادرة؛ ليمتلك تلك الذكرى.

انتهت الأمسية فألتف حولها قرا ؤها، وكل منهم يقتنص منها ابتسامة وتوقيع، وانتظرت أنا في مكاني حتى انتهى الجميع، مستمتعًا بكل نظرة تختلسها نحوي، وقلبي يبادلها الشوق بألف ويزيد.

obeikandl.com

وعندما لملمت أشيائها، ومعها روحي التي تبعثرت، وهمت بالتحرك، اندفعت نحوها وعيناي تحتضنان كل تفاصيلها.

قابلتني بابتسامة وفرحة حقيقة، لم تكن فرحة كاتبة بقارئ، بل كانت لهفة عاشقة لعاشق .

مددت يدي بالديوان لتوقع لي عليه، فتناولته في فرحة وعيناها تتألقان في قوة ، وبخطها الدقيق المنمق خطت لي :

(أسعدني حضورك، وبك أكتمل يومي، تحياتي ومودتي ..لبنى).

هزتني كلماتها البسيطة المعبرة، ومنحت ني الشجاعة لأخبرها برغبتي في الجلوس معها في أحد المقاهي الساهرة، فأخبرتني أن لديها موعد تم حجزه للقطار، ولا مانع لديها أن أقوم بتوصيلها إلى المحطة.

القطار مرة أخرى ..

بل القدر..

قطع حديثنا التفاف أصدقائها حولها لتوديعها فلنسحبت بهدوء، ووقفت في ركن غير بعيد أتأمل فرحتها المزدوجة. كانت مليئة بالحيوية وكأنها خُلقت لتمنح للعالم كل المشاعر الإيجابية.

وكنت أنا أخر من غادر المكتبة، وعندما تحرك القطار كنت بجوارها.

obeikandl.com

ودعنا سويًا الإسكندرية، على موعد أخر قريب باللقاء، وفي هذه اللحظة، دوت في عقلي كلمات قصيدة شاعر العامية الرائع مصطفى إبراهيم :

(أنا نفسي أقولهالك، في أول مرة نتقابل، فلو كان المكان يسمح، وست الكل لو تأذن، أنا عايز أقول إني ، بحبك من زمااااااااااان جدًا).

ولكني للأسف لم أستطع، وتأجل الأمر.

ولكن القلوب عاشته، وظل يتردد بداخلها في حياء

obeikandl.com

- 4-

أثناء عودتنا بالقطار إلى القاهرة لم نتوقف لحظة واحدة عن الحديث، وكأننا نخشى أن يسلبنا الصمت جزء من هذا الحلم الساحر الذي نحياه، والذي تخطى بروعته حاجز الزمان، ورتابة المكان، وسلطان الوجع والخذلان .

كنت أتشربها كما المحروم، وكانت تحتويني كما الأم الرؤوم. فكنت أتورط فيها أكثر، فتضمني عيناها أكثر وأكثر.

كانت أوقاتًا خالصة من السعادة والمتعة واللذة والعصف الذهني، حدثتني فيها عن كل شيء، الشعر، الموسيقى، التانجو، أحلامها، طموحاتها، صديقتها المقربة، أبيها، أمها، وعشرات التفاصيل الأخرى.

وحدثتها عن عملي، وأمي، وأصدقائي، ومشاكلي، وهمومي، وخطبتي السابقة، دون أن أتطرق لحقارة سلمى أو ما أكنه لها من مشاعر وضيق، فلم يكن هناك مجال للحزن في هذه الليلة.

وإن لمحت هذا الحزن لوهلة في عينيها، عند ذكري لسلمى.

وكأنها كانت تتمنى لو كنت أحتفظ بعذرية قلبي مثلها، وأن تكون هي أول من يسكن هذا القلب.

دون أن تدرك أن علاقتي السابقة، كانت عملية اغتصاب ممنهج لروحي وقلبي، وابتزاز حقير لمشاعري.

كان ليلتنا، ولم أكن لأفسدها، أو أمنح لغيرها نصيب فيها.

فرحت أنهل من جنة قربها، مندفعًا بكل حواسي إلى هذه المغامرة المجنونة.

وجهها الطفولي بات يغريني، ويساومني بالابتسامة.

فأعده بما تبقي لي من عمر، على أن لا تفارقه تلك الابتسامة الجذابة، أو يغيب عني في زحام الحياة.

صوتها كان يخطفني ولا أفيق منه إلا على ألق عيناها المنتشية التي منحتني إحساس كامل بالأمان كنت أفتقده قبلها.

الحقيقة أنه لم يكن هناك خيارات كثيرة متاحة أمام فتنتها غير الهروب أو الغرق.

وبكل ثقة اخترت الغرق.

obeikandi.com

وصلنا إلى القاهرة، فأوصلتها من محطة القطار إلى منزلها بسيارة أجرة، وتبادلنا أرقام الهواتف قبل أن أودعها.

نظرة الأسى التي كللت مقلتاها، وهي تودعني، خطفت قلبي، وبعثرت في جسدي رعشات لذيذة لم أشعر بها منذ زمن.

كانت عيناها تخبراني بما يكتمه اللسان، وما يموج بصدرها ويحرق قلبها.

كان فراقنا يؤلمها ويتعبها، ويهزها هزًّا، ولم ترغب هي لحظة في إخفاء إحساسها، بل كانت شغوفة بأن يصل لي.

وساعتها زال ترددي وقلقي وخوفي من الفشل، ففتحت المجال أمام قلبي الجائع ليلتهم تفاحة العشق المحرم،و يشبع نهمه إليها.

وها أنا ذا أمام مرآة غرفتي، أقف على حافة القبول والرفض، معلقًا بحبل الجنون على هاوية التعقل، أعترف لنفسي أنني غارق في عشقها بطريقة أذهلتني، وكأنني لا أصدق ما حدث وإن كنت أتمناه وأتشبث به.

مصيرية هي اللحظة التي نعترف فيها لأنفسنا بأننا نعشق.

لحظة متفردة نادرة، كرعشة فراشة خائفة؛ تحلم باحتضان النار لتحظى بالدفء، وتبذل حياتها ليخطفها ذلك الإحساس الذي لا شبيه له. كأمنية مبهمة تسكننا منذ الميلاد، وتتحقق لتحقق أهم أحلامنا قبل الموت.

لحظة لن يشبها إلا زلزلة الضمة الأولى، وشهقة اللقاء الأول.

وأنا الآن أمر بهولها.

***

لم يكن قد مر على لقا ئنا في الإسكندرية سوى أسبوع واحد، عندما قدر لنا أن نعود إليها معًا. ففي تلك الليلة الموعودة هاتفتها، وغرقنا معًا في بحر من المشاعر الدافئة، وفي كل لحظة تمضي كنت أكتشف فيها ما يقربني إليها أكثر، وما يمحو ما بيننا من مسافات صنعها قلقي وذكرياتي المؤسفة.

وكشف لي القرب منها عن لبنى مختلفة كانت تسكن أعماقها، لبنى أخرى تتحلى بالجرأة ويسكن روحها الجنون، فكلما فاضت مشاعرها، كلما تمكنت منها تلك المجنونة.

عشقتها وعشقت تلك المجنونة الأخرى، ولم يعد قلبي ملكًا لي، وصرت أسيرها.

ولا أعرف كيف مضى الوقت، لتأتي نهاية المكالمة، وكأنني لم أكن أنتظر أن تنتهي أبدًا، ففاجأتها وفاجأت نفسي متسائلًا:

- ما رأيك في زيارة الإسكندرية غدًا ؟!.

وبكل ما يعتمل بداخلها من مشاعر وحنين، أجابت بصوتها الناعس العذب:

- سأنتظر الغد بفارغ الصبر يا سامح.. أنت لا تدري كم أوحشتني وكم أشتاق إليك. وصدقني أنا لا أعرف كيف أتحدث إليك بمثل هذه الجرأة، ولكن ما بداخلي أكبر مني. للمرة الأولى منذ خطت أقدامي على الأرض، أشعر بأنني على قيد الحياة، وكأن ما قبلك لم يكن، وما بعدك لن يكون.

كنت أقدر ما تمر به من مشاعر لأنني أمر بما تمر به وأكثر، كما كنت على يقين تام بأنها تتخطى حدودًا كثيرة وضعتها لنفسها، وأنها تهزم حيا ءها بأشواقها ، فأردت أن أطمئنها وأخبرها أن صورتها في عيني لن تتبدل، فقلت :

- لا تكتمي شوقك يا حبيبتي، تكلمي بما تموج به روحك، ولا تقمعي مشاعرك، فالذي بيننا أطهر وأنقى ما في الوجود، أفصحي عما بداخلك فروحي ظمآنة ولن يرويها إلا إحساسك .

لم أعرف فيما تحدثنا بعدها، ولا طبيعة الحوار؛ فقط كانت الكلمات جسر من دفء واحتواء، وعادت المكالمة تستمر من حيث انتهت، وفي الثالثة صباحًا، لم يستطع هاتفها أن يصمد أو يشاركنا شهوة الفرح، وأخبرها التنبيه أن شحنه سينتهي، فقالت بلهجة يشوبها الحزن :

- آسفة يا حبيبي ..هاتفي لم يعد به من شحن سوى خمس دقائق، سأفتقدك جدًّا حتى ينتهوا.

وبكل ما يعتمل بداخلي من شوق، قلت :

- وبعد أن ينتهوا !!.

تنهدت بقوة وكأنما تحرقها الفكرة، وقالت بصوت مفعم بالمشاعر ووجع الشوق اللذيذ، والشرود:

- بعد أن ينتهوا.. إنها حكاية أخرى.

لم أنم لحظة واحدة في تلك الليلة، وكل ما كنت أفعله هو أن أقرأ كلماتها ورسائلها التي تبادلناها في الأيام السابقة، وجسدي ينتفض من الانفعال، وعقلي تغمره التساؤلات والدهشة، وكأنني أخوض غمار حلم مستحيل.

لم يكن من الممكن مع كل ما مررت به في الماضي، أن أطلق على شعوري الأول نحو لبني لفظ (حب) وهذا ما أدركت خطأه الآن، فهو لم يكن احتياج كما اعتقدت في حينها، لقد كان حبًّا حقيقيًا حدث من أول نظرة.

إن الله قد قذف حبها في قلبي فأسرتني في غمضة عين برقتها، وأزاحت من داخلي كل المشاعر السلبية، وملكتني.

obeikandl.com

إن معظم الرجال لا يؤمنون بالحب من أول نظرة، وتنكره بعض النساء، وأنا أؤمن أن كل الحب يحدث من أول نظرة، فقط هناك أرواح مهيئة لتحتويه جنينًا صغيرًا، وأرواح تحتاج لمزيد من الوقت كي تصدق وجوده.

هل صرت عاشقًا حقًّا، هل أصبح النوم رفيقًا غير ودود، هل أصبح للقمر حضور دائم في أمسياتي، هل صرت أحياها وكأنها هي الحياة، ولا حياة بعدها.

كان هذا هو حالي وأكثر.

ولذلك كنت هناك في الصباح الباكر، لا أشعر ببرد ولا ألتفت لمطر، أنا هناك في دنيتنا أحلم مستيقظًا بلقائها.

وأسفل منزلها أخرجت هاتفي المحمول وطلبتها، فأجابت قبل أن يتم رنته الأولى :

- صباح الخير.

- صباح الفل.

- هل افتقدتني ؟ .

- أنت لا تفارقني كي أفتقدك .

- أنا أنتظرك أمام بنايتكم.

obeikandl.com

- وأنا جاهزة وسأكون عندك حالًا.

- وكيف عرفتي أنني سأكون هنا دون أن أخبرك بساعة حضوري .

- القلوب لا تحتاج إلى موعد ..القلوب دائمًا على موعد.

- أشتاق للإسكندرية .

- وأنا أشتاق إليك أكثر.

كم أعشق تلك المجنونة التي استعمرتها بعد لقائي بها.

(لوليتا).

هكذا أطلقت عليها، وهكذا عشقت هي الاسم، وأحبت تلك الشخصية الجامحة .

ظهور تلك الشخصية التي كانت النقيض لها في كل شيء، كان يشبع بداخلي شيء من الغرور.

لقد فجر وجودي بقربها كل ينابيع الهوى التي تاقت لها يومًا، ولم تكبحها هي، بل أطلقت لها العنان لتغمرها وتسرقها حتى من نفسها، فصرت أعشق بحرًا وبركانًا.

كانت كألف امرأة عجنوا ليشكلوا كيانًا مبهرًا مفعمًا بالمفاجآت، وكأنها كانت تدخر كل طاقتها وحيويتها ومشاعرها من أجلي.

obeikandl.com

فلما التقينا تفجرت بالعشق والشوق والحياة والجنون.

***

على شاطئ البحر، جلست أمامي على سجيتها، تضحك بحرية، تتأملني بشغف، تلتهم ملامحي بأعين مشتاقة، وبين الحين والأخر تكسو وجهها حمرة الخجل.

وكأن الصراع بين الشخصيتان لا يتوقف لحظة، فتارة هي لبنى الخجولة، وتارة هي لوليتا العاصفة، وذبت أنا في ذلك المزيج الساحر، وعرفت أن سحر نظراتها العاشقة قد يغرق أكثر من ألف بحر ثائر.

الشوق يحرقها كما يحرقني، وعيناها تقولان الكثير، والحياء يمنعها برغم هزيمتها له، ولكنه لم يمنعني من مصارحتها. تلامست أطراف أصابعنا في حياء، وعندما تلاقت أعيننا لم أستطع لشوقي صبرًا، فقلت :

- لبنى .

- قلب لبنى .

- أحبك .

- .....

- أحبك يا لبني..أحبك.. أحبك.. أحبك.. أحبك.

obeikandi.com

- يا الله يا سامح ..أخيرًا قلتها! .

- أهي أول مرة تشعرين بها؟.

- لو لم أشعر بها من قبل لحسبت نفسي من الأموات، فأنا أحيا بها، وبك.

وساعتها هاجت مشاعرنا، ورقت قلوبنا، وكان عناق أيدينا الأول الذي تمنيت لو كان ضمة.

هل تلاشى الكون من حولنا؟.

هل صار المدى فسيحًا فضم كل أحلامنا؟.

هل توحدنا فصرنا روحًا واحدة تسكن جسدين؟.

هل ابتسم البحر أخيرًا ؟.

كل هذا وأكثر حدث.

كان البحر هو الشاهد، والأمطار أشواقنا، والشتاء فردوسنا الأرضي، كنا معًا، ولم نرغب من الدنيا، بشيء أكثر.

تمشينا على رمال الشاطئ حافيين الأقدام، قطعنا النهار والمسافات، دون وجهة محددة، فأي مكان تذهب إليه أقدامنا هو مكاننا، وأي بقعة تحتوينا هي جنتنا. امتزجت أرواحنا فلم نعد نميز أي قلب ينبض بالعشق والفرحة، وأي قلب يرد عليه، عندما فاجأتني قائلة :

obeikandl.com

- سامح .

- قرة عين سامح .

- ما أروع اسمك .

- هو رائع لأنه يخرج من بين شفتيك يا حبيبتي ..

- هل أنت واثق من حبك لي ؟ .

- بالتأكيد لا ..فحبك كان مرحلة أولى، الآن أنا عاشق، متيم، مجنون بكِ .

- هل تعشقني لهذه الدرجة بالفعل ؟! .

- لا يمكن أن أجيبك بنعم ؛ لأن عشقي لكِ يزيد في كل ثانية، فقط سأخبرك أنكِ أنت الشيء الوحيد الفارق بين الحياة والموت، بين الحزن والسعادة، بين الهدى والتيه، أنت يا حبيبتي كل ما أرغبه وأشتهيه. أتعرفين ؟!

- أعرف ماذا ؟

- لكل إنسان حلم يتمنى تحقيقه؛ كي يثبت لنفسه أن للحياة معنى، وليس مجرد وقت يمضي والسلام، وبكِ أنت وحدكِ تحققت كل أحلامي، لم أعد أحلم منذ عشقتك؛ لأن الحلم لم يعد بروعة الواقع.

- كم أحبك يا سامح، وكم أعشق كلماتك التي تأسرني بسحرها.

obeikandi.com

- وهل هناك سحر أكثر من وجودك بجواري.

وعندما شارف النهار على الانتهاء، وحان موعد عودتنا، قبضت لبني على يدي في قوة، وكأنها لن تتركها مرة أخرى، وبعينين متضرعتين قالت:

- سامح ، إياك والبعد عني، فبدونك أموت.

منحتها نظرة عشق خالصة، و احتويتها بعيني، وتحركت من أجلها كل خلية في جسدي ؛ لحمايتها حتى من أفكارها .

كان إحساسها صادقًا، وخوفها حيًّا، وعشقها متفجرًا .

العشاق لا يخافون من كل أنواع الفراق إلا الموت، الموت وحده هو القادر على إبعادهم، فقط إبعادهم وليس إطفاء أو تقليل جذوة العشق المتوهجة بقلوبهم.

ولو استطاع شيء أخر تفريقهم. فما كان بينهم هو مجرد شعور وقتي قابل للفناء، لا يمكن أن ينتمي للعشق أو حتى يقترب منه .

قلت:

- حتى الموت يا حبيبتي لا يمكن أن يفرقنا، من يحيا بقلب حبيبه لا يموت أبدًا.

- لكن الموت مخيف يا سامح، لو مت أوعدني أن تزورني في قبري، روحي لن تهدأ ولا تستكين إلا بوجودك.

لوهلة امتلكتني الفكرة، فسألتها بحذر:

- ولو مت أنا ؟!.

ارتجفت شفتاها في خوف، وظهر على وجهها التوتر والقلق، وقالت :

- عمري كله فداك يا سامح ..صدقني مع الحب الذي أكنه لك بداخلي، لن أحيا بعدك لحظة واحدة.. لأنك أنت الحياة.

وساعتها كنت على استعداد وقتها، لأن أقايض عمري كله بعناق.

obeikandl.com

-5-

مع الحب نصبح أجمل، أكثر إشراقًا، وكأننا خلقنا من جديد. نجوب في أنحاء نفوسنا كالغرباء، تسكننا الدهشة. نبدأ في التعرف على الأشياء وعلى الناس، وكأننا كنا ننظر إلى الدنيا من نافذة ضيقة، ثم سكنا البراح.

مع الحب نعيد اكتشاف كل شيء، الحياة نفسها تصبح أكثر رحابة وأكثر بهجة، وكأنما مسها الشجن بلمسته الشجية، فظهرت في الأفق ابتسامة طالما حنت إليها القلوب.

مع الحب نعيش من خلال من عشقناهم، ويصبحون هم جواز مرورنا صوب السعادة، والحياة الحقيقية التي غفلنا عنها.

لم تكن لبنى عادية، هذا ما أستطيع أن أقسم عليه بكل جوارحي، ولذلك لم يكن تعلقي بها طبيعيًا، كنت أتشبث بها كالغريق، الذي كان يقاتل الموت، ثم خصه القدر بحياة أبدية .

منحني حبي للبنى طاقة هائلة انعكست على أدائي في العمل وقتها، حتى أنني كنت أسبق الجدول الموضوع لإنهاء المرحلة الأولى بالمشروع الجديد بشهر كامل، بعد أن نجحت جهود مستر ناجح في احتواء الجفاء بين الشركاء. لذلك كانت معنوياتي مرتفعة لدرجة غير مسبوقة مع إحساس

عميق بالتحرر والرضا، خاصة وأنني كنت أرتب للحظتي الكبرى معها، والخطوة الأكثر أهمية في حياتي.

أن نجتمع تحت سقف بيت واحد ولا يفرقنا إلا الموت.

لقد حُسم الأمر بداخلي، لن أستطيع الحياة بدونها ولو للحظة واحدة.

أنا بحاجة لوجودها في حياتي بشكل لا يطاق، لقد تعبت روحي من الوحدة والانتظار.

وبرغم ذلك أقسمت لنفسي ألا أمنح الأمان للدنيا، إلا في تلك اللحظة التي يغلق علينا فيها باب واحد، وأضمها إلى صدري دون أن أقلق من قدوم الليل أو انتهاء النهار.

فشلي السابق في خطبتي، وقصة حبي الأولى المنكوبة، جعلا وساوسي مستمرة، فكنت حذرًا في تفاؤلي، وإن كان وجودها الدائم ، ولهفتها، وجنونها وشوقها المستعر لي، يرغمون كل مشاعري السلبية على التقهقر من ساحة عشقنا، فكان مجرد مرورها بخاطري يبدد القلق والتوجس والتردد والشكوك والإحباط . وصار حبها يحتل كل المساحات المظلمة بأعماقي.

كنت أولد على يديها، وأتحول لذلك الشخص الذي تمنيته، وحلمت هي به، وباركته أمي.

obeikandl.com

هذا التغير الإيجابي كان فارقًا معي جدًّا، فضمد جراحي، ولملم فوضويتي، فسكنت هي خواء قلبي، وأنشأت مستعمرتها، وملأتها بالملائكة.

صحيح أن من يتقمص شخصية غير شخصيته يعاني، وينهار في لحظة ما؛ لأنه لن يشبه نفسه ولا فطرته في هذا التوقيت، ولكنني أدركت دون جهد، أنها لم تبدلني فقط بل أعادت لي أشياء كثيرة فقدتها .

مع لبنى تبدلت رؤيتي لكل شيء، وزال سوء ظني بالحياة والنساء، وأحببت هذا التغير، وسعيت إليه.

كانت تعيد اكتشافي بعشقها وفلسفاتها وجنونها، ترجعني لفطرتي الأولى، أطهر وأنقى وأكثر انفتاحًا على الحياة.

وأحببت أنا هذا منها، ولم أتوجس منه خيفة. أنا طفل ترعاه أم، وأخت، وصديقة، وحبيبة.

لم يعد الحب في نظري مجرد ابتلاء، بل صار احتواء. فالحب الحقيقي لا يتكرر، والاحتفاظ به هو الإنجاز الحقيقي الوحيد في الحياة .

وكان هذا أكثر مما أحلم به، لذا كان علي أن أتقدم في علاقتنا خطوة للأمام، كما يفعل كل عاشق شريف، وأتقدم لخطبتها ؛ ليكون حبنا في النور، بعيدًا عن شوائب الخوف والقلق وتأنيب الضمير.

obeikandl.com

وبالفعل، انتهيت من عملي في أحد المواقع الإنشائية، ثم انصرفت مبكرًا، كان علي أن أفاجئها بُحلي مميزة، وخاتم خطبة مبتكر يليق بعشقي لها، فالمفاجآت أصبحت هي عصب علاقتنا، كل منا يسعى لإبهار الأخر، وإظهار مدى عشقه وتعلقه به.

لذلك ستجد خاتمي المصنوع من العقيق والذي أهدته لي لبنى يحمل حرفي اسمينا باللغة الهيروغليفية.

في حين كانت القلادة الذهبية التي أهديتها لها في أحد لقاءاتنا تحمل من الأمام حروف كلمة لوليتا بالانجليزية (Lolita) في حين أنها من الخلف وبحفر غائر نقشت كلمة أحبك باللغة العربية، وبنفس طريقة كتابتي لها، بخطي السيئ.

لم تكن مفاجأتنا تتوقف على الهدايا البسيطة المبتكرة، بل فاجأتني ذات مرة بدعوتها لي على الغداء في أحد الحدائق العامة، وكان الطعام جميعه من صنع يدها كما تمنيت أمامها ذات يوم، وكان من الواضح أنها بذلت فيه مجهود حقيقي، فكنت أتذوقها مع كل صنف.

وجودي أسفل نافذتها بعد دقائق من تمنيها لرؤيتي بعد منتصف الليل.

زيارتها لي في موقع عملي دون إخطار.

القصيدة التي كتبتها لي، ونالت انبهاري.

obeikandl.com

اللوحة العجيبة التي رسمتها لوجهها، والتي انتزعت ضحكتها.

حصولها على كتبي المفضلة فور توفرها بالمكتبات .

ألاف من التفاصيل البسيطة كنا نبني حولها عالمنا الجديد .

لذلك كانت زيارتي للصائغ هامة بالنسبة لي، فلم أرغب في أن أهديها حليًا ذهبية، صنعت لمن يملك المال فقط، كنت أريد أن أمنحها شي ئًا صنع خصيصًا من أجلها هي، شي ئًا بذلت فيه من روحي وشغفي ، و اقتطعت من وقتي كي يكون لائقًا بها .

انتقيت من على الإنترنت كل قطعة حلي، وتخيلتها ترتديها، كنت أرغب في شيء يضيف لها، وفي النهاية أدركت أنها فقط من تضيف للأشياء.

إنها عالم كامل من العطاء. كالحياة حين ترضى وتمنح بسخاء .

قطعت الطريق نحو محل الصائغ وقلبي يرقص طربًا وعشقًا وشوقًا، لم أكن أدرك أن لبنى كانت متوغلة في إلى هذا الحد، ومتشعبة في أجزائي كنجم متفجر حارق وصاخب.

وقبل أن أصل إلي محل الصائغ بعدة أمتار فاج أني اتصالها، فابتسمت وأنا أجيب على الهاتف، متسائلًا في أعماقي: هل تشعر بي، وتتعجل أن تشاركني فرحتي.

إن قلوب العشاق شفافة، ومع الوقت يحدث بينهم تواصل على مستوى روحي فائق، فيكفي أن يفكر أو يتمنى طرف منهم، حتى يلبي الأخر النداء.

كان شوقي إليها يهزني هزًّا، وكنت أتمنى من هذا الاتصال أن يخفف من حدة الحنين إليها، دون أن ينقطع هديره ولذته.

وكان للأقدار تصاريف أخرى .

ومع صوتها الباكي ارتجفت يدي القابضة على هاتفي المحمول في عصبية، وتوتر كياني، وفي لحظة واحدة تلاشت كل ملامح البهجة من روحي، وصارت الدنيا رمادية كهواجسي القديمة، وبكل لوعة الدنيا، سألتها :

- ماذا حدث يا حبيبتي، هل والدكِ بخير؟!.

ازدادت حدة بكائها ونشيجها، فتفتت قلبي في صدري، وعندها أتاني صوتها المنفطر، ليخبرني الخبر المفجع :

- جميعهم بخير، أنا التي لست بخير يا سامح.. لست بخير أبدًا .

وبكل ما في الدنيا من لهفة وفزع أخبرتها أني في الطريق إليها.

حاولت الرفض ولكني أصررت، وعادت الفوضى لتضرب ب أطنابها في أعماقي.

وفي لحظة تحولت سيارتي إلى صاروخ منطلق.. لا أعرف كم إشارة كسرت!. ولا كم طريق اتخذته عكسيًا !

طوال الطريق كان السؤال الذي يدوي في عقلي، ماذا حدث لكِ يا لبنى ؟!ماذا أصابك يا حبيبتي ؟! إنها المرة الأولي التي أشعر بكل هذا الحزن يسكنها، وكأنها على وشك الانهيار.

نسيت كل شيء في الوجود إلا صورتها ونبرات صوتها الحزينة، كل شيء تلاشى في لحظة..

الصائغ، والمشغولات الذهبية، والمفاج أة التي كنت أعدها لها، ولم يبقى في خيالي إلا قلقي، ولهفتي للوصول إليها ونجدتها .

وعلى كافيه قريب من بيتها كانت هناك.

زهرة ذابلة، شاحبة، فقد وجهها ألوانه وكل مؤشرات الحياة، وكأنها كانت تحتضر.

والشيء الموجع أكثر أنها كانت تبكي بحرقة، وترتعش بقوة، وكأن برد الدنيا كله قد استعمرها؛ لينفطر قلبي وتدمي روحي.

من أصعب الأشياء وأكثرها قسوة والتصاقًا بالذاكرة، هي رؤية حبيبك يبكي للمرة الأولى.

حبيبك أمامك، يعتصره الحزن، وأنت أمامه عاجز عن نجدته أو إيقاف دموعه.

إنها لحظة كونية نادرة، من أجلها تنطفئ الشموس، وترفض من أجلها الكائنات الحياة .

لقد مت ساعتها ألف مرة.

وعندما جلست أمامها، هالني ما أراه، طعنني في صميم قلبي. لا يمكن أن يكون ما تمر به لبنى هينًا. إنها تعاني وتتألم، وكأنها فقدت عزيزًا على قلبها، أو أنها واقعة في مصيبة كبيرة، رحمتك يا الله .

- ماذا حدث يا لبني؟. أخبريني بالله عليك يكاد قلبي يهلك قلقًا عليكِ.

الصمت والدموع، وألف كلمة في نظرة عينيها المنكسرة .

ولحظتها لم آبه بكل ما حولنا من بشر، ومددت يدي ؛ لتقبض على يدها في قوة، لأبثها ما بداخلي من مشاعر؛ لتنطلق هي في بكاء مرير متواصل.

- ماذا حدث يا لبني.. لماذا هذه الدموع، وهذا الانكسار ؟!.

وبمنديل ورقي انتزعته من العلبة الموجودة على الطاولة جففت دموعها التي عادت ؛ لتغرق وجهها كشلال من نزيف، وأنا أنظر إليها متضرعًا، خائفًا مما ستنطق به من كلمات، وعقلي يقلب من الأفكار السوداء ما

جعلني أقبض على يديها بقوة أكثر، وأجذبها ؛ لأجعلها تنظر نحوي، وفي اللحظة التالية، أتى صوتها المضطرب المرتعش لتقول في أسى:

- أنا متعبة جدًا، وأشعر بأني سأموت .

عصف بروحي القلق مع عدم الفهم، فسألتها:

- ماذا حدث أخبريني، ولماذا ترتجفين بهذه الطريقة ؟! .

وبعصبية شديدة أجابت:

- أخبرتك أني متعبة .. متعبة جدًّا، أظنها واضحة ولا تحتاج لتفسير.

صدمني ردها وحدتها، ولكني تجاوزت عن الأمر نظرًا لحالتها، وقلت بلوعة:

- فهمت يا حبيبتي أنك متعبة ..تحمليني قليلًا وأخبريني من أي شيء متعبة!.

وفي اللحظة التالية، تهاوت مجرات، وتفتت أقمار، وتمزقت قلوب، واحترقت أرواح مع ردها الصادم :

- لقد ذهب ت للطبيب من أجل نتيجة الأشعة والتحاليل، والطبيب أخبرني...

قاطعتها بعصبية :

- طبيب وتحاليل وأشعة، لماذا يا لبني؟! ..هل أنت مريضة لهذه الدرجة، ومنذ متى، وأين كنت أنا ؟!.

غلبها التأثر فتضاعفت دموعها، ونظرت نحوي في ضراعة وقالت بصوت مرتبك :

- أنا ..

ولم تستطع أن تكمل ..

كانت نظرات رواد المكان كلها منصبة علينا، ولكني لم آبه لشيء في الوجود إلا لدموعها التي كانت تحرقني، وملامحها التي اكفهرت، وأصبحت أكثر شحوبًا وقلقًا .

لم أترك يدها لحظة واحدة، وجففت المزيد من دموعها بمنديل ورقي جديد، وفي اللحظة التالية حدث أغرب شيء يمكن أن يحدث أو أتوقعه.

فقد انتزعت يدها من يدي بعنف قبل أن تقول بصرامة وحدة، وكأن لبنى الضعيفة الهشة قد تلاشت لتحل في جسدها لبنى جديدة لم أعرفها، ولم أحسها من قبل :

- سامح أسمعني جيدًا، لم يعد أي منا يصلح للأخر، وللدقة ..

قاطعتها :

- ما هذا الجنون الذي تتفوهين به ؟!

- إنه ليس جنونًا يا سامح بل إقرار بواقع مرير، فأنا لم أعد أصلح لك أو لغيرك، ومن سأتزوجه سأكون لعنة عليه.

- لتهدئي قليلًا يا حبيبتي، وأخبريني بما أخبرك به الطبيب ؟.

وبكل انكسار قالت :

- لقد أخبرني الطبيب ببساطة أنني لم أعد أنثى، السرطان استشرى في الرحم وأماكن أخرى كثيرة، ليس نوع واحد من السرطان، بل ثلاثة أنواع. ولابد من جراحة عاجلة، ونسبة نجاها أقل بكثير من نسبة فشلها، أنا لن أغشك أو أخدعك أو أجعلك تتعلق ببقايا أنثى، أو جثة تسير على الأرض، سامحني يا سامح إنها المرة الأخيرة التي سأراك فيها.

قالتها ثم اندفعت تجري صوب الشارع، فاندفعت خلفها بعد أن وضعت على الطاولة قطعة نقدية كبيرة، ثمنًا لمشروبات لم نتناولها.

تبعتها بخطوات مسرعة، وأنظار رواد المقهى معلقة بنا في تساؤل وحيرة.

أتت سيارة من على البعد كادت تدهمها، ولكني استطعت إنقاذها من أمامها في اللحظة الأخيرة.

وبكل ما يعتمل بداخلي من مشاعر، ضممتها إلى صدري، فلرتمت بداخله، وهي تردد في خوف وضراعة :

- لا تتركني يا سامح ..لا تتركني ..إنني خائفة ..خائفة جدًا.

obeikandl.com

-6-

لا يمكن لأحد في الوجود أن يتصور حالتي بعد هذا الموقف العصيب، فهنالك أشياء يصعب الحديث عنها من وقع صدمتها.

ما أذكره حينها أن الدنيا صارت فضاء أسود بلا نهاية، وانقلب عالمي مائة وثمانين درجة، فانطفأت الحياة في عيني، وتسرب الأمل من روحي، وهويت من ذروة النعيم إلى أعماق الشقاء دون تمهيد أو توقع أو رأفة.

وضرب شرخ كبير ثقتي بكل شيء، وكاد يقوض إيماني.

لم يكن في الوجود كله من هو أتعس مني.

كنت أنتحب وأنا على حافة الانهيار.

لم تكن المرة الأولى التي أبكي فيها لفزعي من خسارة شخص عزيز على قلبي.

بكيت بدموع من دم عندما خانتني سلمى.

وبكيت أكثر عند مرض أبي، بل وعشت معه كل مراحل العجز، وفي النهاية رحل أبي دون أن أستطع أن أضيف إليه من عمري، أو أمنحه ذلك الشعور المطمئن، بأني قادر على مساعدته بالعبور من محنته.

الإحساس بالعجز قاتل، ومخيف، ومؤلم.

وقمة العجز أن يكون حبيبك على وشك الانهيار نفسيًا، ويجبرك تأخر الوقت والظروف والمجتمع والعرف، على أن تتركه منفطر القلب، دامع العينان، مشبع باليأس، ليرحل وحيدًا. لا حضنك يضمه، ولا يدك تجفف دمعه، ولا كلماتك تصله لتهون عليه مصابه.

لتعود أنت بكامل عجزك كاسف البال إلى غرفتك، وقد تهشمت كل أحلام السعادة بداخلك، وتاهت روحك مع أحزانه.

كان موقفًا عصيبًا ..

أي صدمة في الحياة يمكن تحملها، إلا رؤية حبيبك في محنة لا تستطيع مساعدته فيها.

هي لحظة يتحول فيها العجز إلى قهر متكامل الأركان يقلب كل الموازين، وينبت في الوجدان كل المشاعر السلبية، فيكبل الروح.

كنت أعرف عن يقين أنها بحاجة لوجودي بجوارها، إلا أنني في محنتي هذه شعرت بأنني من أحتاجها، لقد عودتني أنها هي من تحتوي وتحنو وتبدد أحزاني وقلقي، فلما انقلبت الآية، صرعني الخوف والقلق والعجز.

والعجز يقتل الرجال .

obeikandl.com

وبكل ما يعتمل بداخلي من مشاعر اخترت الهروب من عجزي إليها، غادرت عالم الواقع إلى عالمنا الخيالي الذي صنعته ذكرياتنا القريبة .

والأحداث السارة لا تتحول إلى ذكريات إلا عند فقداننا الشعور بالأمان. فتتحول لحظات العشق الممتدة، إلى أحداث ومشاهد متقطعة، تتشتت فيها أرواحنا بحثًا عن كلمة أو موقف يخبرنا أن الأمور مازالت بخير، وأننا نستطيع عبور هذه المحنة .

المحنة التي أدرك جيدًا أنه لا يمكن لأحدنا أن يعبرها وحيدًا .

لم يكن موقفي هذا هروبًا، بقدر ما كان رغبة في أن ألمس معها أحاسيس السعادة التي تبددت مع لقا ئنا الأخير، كنت ألوذ بعالمنا الآمن، الذي لا يعرف طعم الحزن أو رائحة المرض.

أهرول بروحي نحو تلك الذكرى، المميزة التي جمعتنا معًا في الإسكندرية، تحديدًا في سيدي بشر بالقرب من بئر مسعود، لقد أصبحت الإسكندرية وبحرها هما خلفية الدنيا التي تجمعنا.

فبعد أن تمتعنا بشلالات من المياه المالحة التي كانت تتسرب من الفتحات الموجودة بين الصخور، والتي أغرقت ملابسنا وبعثت بأرواحنا نشوة لا مثيل لها. جلسنا فوق الصخور متجاورين، تحتضن أكفنا الأمنيات والأحلام، محدثة تواصل روحي فائق بيننا، جعلنا ننسى الوجود

كله، ولا ننصت إلا لموسيقى البحر، وحديث العينان، وخفقات قلوبنا المتلهفة.

وفي غمرة نشوتها، وإحساسها قالت لبنى بصوتها العذب :

- هل تدرك يا سامح مقدار حبي لك ؟!.

نظرت لها مستفسرًا، وعلى وجهي تعبير مضحك، وقلت :

- أخبريني أنتِ.

نظرت نحوي في هيام وقالت بصوتها المتهدج :

- مثل الدنيا وأكثر.

رمقتها بلوم وأنا أهز رأسي في أسف قائلًا :

- يا لك من بخلية، فقط هذا القدر ؟..

انتفضت من مكانها بجواري كعصفور يناديه البراح، وتوجهت صوب الحافة الصخرية غير المسيجة، والتي تطل على البحر مباشرة، وفردت ذراعيها، كما فعلت روز يومًا في تيتانيك، وقالت بلكنة لبنانية عذبة :

- شايف البحر شو كبير ..كبر البحر بحبك ..و ..

obeikandl.com

في هذه اللحظة، كادت أن تزل قدميها لتنزلق من فوق الصخور إلى البحر، ولكني جذبتها نحوي في لهفة وقوة وسط ضحكاتها العابثة بعد أن طغت شخصيتها المجنونة على أفعالها، فقالت بصوتها المبتهج وعيناها تحتضن عيني :

- أتخشى فقدي حقًّا؟!.

نظرت لها بلوعة حقيقية، وقلت بلوم :

- وهل أخاف في الدنيا إلا فقدك !!.

نظرت نحوي في امتنان، وقالت :

- أتدرك معنى أن من يعشقك، لا يخاف إلا غيابك وفقدك، ما أروعه من إحساس يا حبيبي ..إحساس له طعم الأمان والراحة والحياة نفسها.

وساعتها لم أمتلك نفسي من الضحك كالأطفال، قبل أن أقول :

- شاعرة ..من يقدر أن يغلب شاعرة ؟!.

نظرت نحوي بحب وعيناها تبثان لروحي ألف قصيدة عشق، وقالت بصوت يموج بالمشاعر والأشواق:

- الوحيد الذي يستطيع التغلب على شاعرة.. هو قلبها يا سامح، قلبها الذي ملكته، وهام بك حبًّا.

obeikandl.com

في هذه اللحظة تمنيت لو أن المكان خالي من البشر، لأقبلها قبلة طويلة أبدية، أبثها فيها مشاعري وأحاسيسي التي فاقت البحر ثورة، والشمس التهابًا، والحياة جنونًا .

كانت هي بعثي الجديد.

قيامتي من بين شواهد الحزن والموت.

وجودها كان يعني أن أعود مجددًا على قيد الحياة.

وكلما تذكرت سعادتها في هذا التوقيت، وعدت لأتذكر دموعها، كان قلبي يتمزق من اللوعة والوجع .

إن أرقى معاني العشق، أن يبكي حبيبك فتتألم أنت، أن يحزن فتبكي أنت، أن يصيبه الأرق فتسهر أنت، ويحظى هو بكل راحة الدنيا.

أن يكون هو أنت، وتكون أنت هو، فلا يفصلكم عن الإحساس ببعضكما، مكان أو زمان .

وبكل ما بداخلي من مشاعر فياضة، وعبر دموعي التي أغرقت دنيتي بالكامل ، اندفعت نحو اليوتيوب، وكتبت كلمة وحيدة: تانجو ..

لحظات وذوبت مع الموسيقى الحالمة .

obeikandi.com

إن التانجو يعلو على كونه مجرد موسيقى تعزف، التانجو إحساس خارق، لمسة روحانية حارقة تأسرك، وتخطفك إلى دنيتها.

ومع الموسيقى تذكرت :

- سامح أنا متيمة في عشق التانجو، وأشعر معه بأن روحي حرة، وأني فراشة تضم جناحها على قلبها وتطير، وكم أتمنى أن تكون الرقصة الرئيسة في عرسنا هي التانجو، هل ستتعلم التانجو من أجلي يا سامح ؟!

هززت رأسي لها بمعنى نعم ولا، وأنا أتأمل ملامحها التي أصبحت رائقة كمياه بحيرة منسية، فضاقت عيناها للحظات بلوم، قبل أن تحتوينا ضحكة واحدة.

إن كانت النظرات اعتراف، فقد شعرت هي بلفح نظراتي، وأنا أفرد ذراعي صوب السماء، كطير يستعد للطيران، وبكل ما بداخلي من مشاعر متداخلة قلت لها :

- طيري يا حبيبتي وأنا معك، طيري وليكن البراح دنيتنا، والموسيقى جنتنا، والمدى هو حدود شوقنا .

ويومها عزفت أرواحنا و قلوبنا موسيقى التانجو.

ورقص البحر.

ورقصنا معه .

***

لا أعرف كيف مرت علي تلك الليلة السوداء، كل محاولاتي للتواصل معها أو الوصول إليها فشلت، فتأصل إحساس العجز بأعماقي.

كان اختفاؤها المفاجئ صفعة غير متوقعة منها ومن القدر، صفعة زلزلت عالمي وأربكت عقلي .

هاتفها مغلق فلا تجيب، حسابها على الفيس بوك تم تعطيله، الواتس أب صفحة خاوية لا يشير مؤشره لتلقي الرسائل.

لقد ذابت و اختفت تمامًا من عالمنا الرقمي، وكأنها أرادت أن تقطع كل صلة لها بالعالم.

ولم يبق لي من أثرها سوى ديوان الشعر الذي مسته أناملها يومًا، والذي يحتضن غلافه صورتها المبتسمة بسمة صافيه لا تتوقع الأحزان.

ضممت الديوان إلى صدري ألتمس منه الدفء والوصال وبقايا عطرها، وبداخلي يتأصل القرار المتهور .

لابد وأن أراها مهما كان الثمن !.

***

مر الليل دون أن أذق النوم ولو لحظة واحدة. وقبل أن ينبلج النهار كنت هناك، أسفل شرفة منزلها، أنتظر ظهورها كما اعتدت منها دون موعد.

وكنسمة فجرية، كانت تنتظرني في الشرفة، كما توقعت وتمنيت.

إن أرواح العشاق شفافة كما أخبرتكم، وفي المحن تصفو أكثر وتصبح أعظم حدة، لذلك يشعر كل منهم بحضور الأخر دون الحاجة لتواصل حقيقي، فالتواصل بينهم يتم على مستوى روحي مختلف، حيث تلتقي الأرواح في جنة العشق، فيصير الزمن لا معنى له .

توقعت أن تهبط على الفور لنلتقي، وليأنس كل منا بالأخر، ليستند عليه، لأخبرها أنني رغم كل شيء هنا، وأن مشاعري كما هي، ولهفتي أكثر من أي وقت مضى .

ولكنها لم تهبط.

فقط كانت دموعها متواصلة كسيمفونية كئيبة، مزقت ما تبقى من تماسكي وتعقلي .

أخذت أشير لها بجنون كي تفتح هاتفها، فتزداد دموعها.

العجز من جديد.

obeikandl.com

سحقني عدم قدرتي على أن أكون معها في الوقت الذي تحتاجني فيه كي أخفف عنها، كي أخبرها أن كل شيء في الدنيا يهون إلا فراق عاشقين متيمين ببعضهما. أخذت أستعطفها بالإشارة، ولكنها كانت كتمثال من رخام، لا يعرف إلا الدموع.

المكان موحش من حولي، والمطر يتساقط في حياء، والنهار مازال طفلًا، وروحي يسودها ظلام حالك مقبض.

برد الفجر يصفع جسدي، فلا أشعر به، ولا يطفئ من نار شوقي ولا قلقي ولو النذر اليسير.

لقد نسيت في خضم لهفتي إليها ارتداء معطف ثقيل يقيني هجمة البرد، لم أكن أشعر إلا بحزنها، ولا أرى إلا دموعها.

جسدي يرتجف رغمًا عني، ولكني في عالم أخر ينتظر الوصال.

عيناي تبكيان، لا ترمشان عنها، وقلبي يوشك على التوقف من فرط قلقه.

وفجأة دون مقدمات اختفت من أمام ناظري، فوقفت وسط ظلام الشارع، حائرًا كسفينة تائهة في قلب محيط معتم وثائر.

عقلي عاجز عن التفكير، وقلبي يدق في عنف، وكأنه سيغادر صدري ليذهب إليها.

وعندما مر الوقت ولم تظهر في الشرفة مجددًا قررت أن أصعد إليها . لم ألتفت لحماقة الأمر، ولا لأي أعراف أو تقاليد مجتمعية.

لا أعرف حقًّا بماذا سأخبر والديها، ولا المبرر الذي سأسوقه لهما بعد اقتحامي لخلوتهم في هذا الوقت المبكر . فمهما كان مبرري، فأنا غريب عنهم، ولن يشفع حبي ومرضها .

مضت دقيقة أخرى دون أن تظهر فاتخذت قراري.

اللعنة على كل تقاليد وأعراف المجتمع التي تمنع حبيب من رؤية حبيبه والاطمئنان عليه في محنته.

يجب أن أراها الآن وأطمئن أنها بخير، لابد أن أكون بجوارها، مهما تكلف الأمر، ومهما تحملت من مشقة وإحراج .

وبكل ما يعتمل بداخلي من قلق، قطعت الشارع الخالي صوب بوابة البناية التي تقع بداخلها شقتها، وجسدي يرتجف من البرد الذي أصبح أكثر حدة. وهناك رأيتها قادمة عبر البوابة المعدنية شديدة الوهن، تتهادى فوق الدرج، تحمل بين يديها معطف رجالي يخص والدها بكل تأكيد، كانت تقبض عليه بقوة ورقة في نفس الوقت.

اجتاحتني عاصفة من المشاعر فور رؤيتها، وما بين خوفي عليها من التعرض للبرد، وشوقي إليها، ضاعت الكلمات.

وكل ما كنت أفكر فيه في هذه اللحظة تبدد من عقلي، فغلبتني مشاعري واندفعت نحوها بكل لهفة لأضمها لصدري، ف اندفعت نحوي بكل توق لتدفن نفسها في أحضاني، وكأنها تهرب بين ذراعي من البرد والمجهول.

كان عناق مذهل، مدهش، لا مثيل له، اختلطت فيه لهفتنا مع دموعنا، مع قطرات المطر.

يا الله.. لقد خلقت الحياة دون شك من أجل لحظة عناق مماثلة.

دقائق مرت علينا ونحن في دوامة النشوة، قبل أن أنتبه لموقفنا الذي لن يكون له تفسير لو ظهر أحد جيرانها، أو خرج البواب ليقضي حاجه في هذا الوقت المبكر.

كانت ترتجف من البرد والشوق، فضممتها بقوة أكثر، وأنا أحيط كتفيها بذراعي، لتتسرب إلى مسامي حرارة جسدها، ورائحة عطرها المميز الفواحة التي تؤكد لي أنها وضعت على عجل.

ما زالت حبيبتي تضع لمساتها على لقاءاتنا رغم صعوبة الموقف.

صعدت بها الدرج حتى الطابق الثاني، وأما باب شقتها المفتوح لفنا الصمت لبرهة، وتحدثت العيون بما تختزنه القلوب، وماجت القلوب بالشوق واللهفة، فمنحتها أولى قبلاتي وعصارة شوقي، وأخبرتها أنني قادم قريبا جدًّا مع أمي لخطبتها.

وفي هذه اللحظة النادرة رأيت بسمتها الخالصة، النابعة من قلب كان على وشك الاحتضار..

وعندما غادرت ..كانت معي ..

وكنت معها ..

مع وعد بألا يفرقنا أي شيء .

obeikandl.com

-7-

عُدت إلى المنزل بعد ساعات من التجول تحت المطر بلا هدف أو وجهة محددة. الماء يغرق جسدي من رأسي حتى أخمص قدماي، ويبلل ثيابي وكأنما سقطت في النهر القريب.

أعياني البرد الذي تسلل إلى عظامي بإصرار.

الحمى والالتهاب الرئوي كانا قريبين، وتجسدت رحمة ربي في أمي التي كانت متواجدة لنجدتي بعد أن أعادني الحزن طفلًا لا حول له ولا قوة.

نزعت عني ثيابي جميعها كما كانت تفعل معي صغيرًا، وألبستني ثيابًا جافة وقلبها يخفق هلعًا من حالتي.

وساعتها بكيت بين يديها، حتى أغرق دمعي عالمها، وأنا أقص عليها كل شيء دون أن أغفل أقل التفاصيل، فانتقل روعي إليها، فضمتني أكثر دون أن تتحدث، وهدهدتني وهي تقرأ على رأسي القرآن لترقيني به، وغمرتني رائحتها الذكية، فنمت ورأسي على صدرها حتى الصباح.

عيناها المحتقنتان اللتان استقبلتاني فور يقظتي، أنبأتاني بأن ليلتها كانت بمثل سوء ليلتي أو ربما أسوأ. فعلى الأقل حظيت أنا بحنانها ودعمها،

وبعض النوم، بينما هي انفطر قلبها علي فلذة كبدها، فهجرها النوم وسكنها القلق.

حيرتها أفزعتني، لم أعرف كيف كانت تفكر، وفيما كانت تفكر، لقد وضعها موقفي في معضلة عصية عن الحل.

كانت تلك العزيزة تحلم باليوم الذي أتزوج فيه لتكتمل فرحتها بعد نكبتي الأولى، وجئت أنا إليها بالخبر المنتظر، ومعه من الأحزان ما يبدد كل فرح.

لم أعرف كيف ستتقبل أن يرتبط ابنها بفتاة مريضة لن تنجب، ولن تحقق حلمها برؤية الحفيد.

قرأت في عينيها كل شيء.

قلقها علي، رغبتها في أن أن ال السعادة التي أحلم بها مع الفتاة التي اختارها قلبي، وحيرتها التي بلا نهاية.

لكم هي موجعة تلك المشاعر المختلطة التي لا تعطي فرصة للاختيار، أن تكون السعادة على حساب حلم أخر، هو هزيمة نفسية مروعة.

وكعادتها لم تتسرع في إصدار حكم أو رأي، وتناقشت معي في كل جوانب الأمر، بعد أن أيقنت أني تماسكت، وأصبحت قادرًا على النقاش والتفكير الصائب، وفي نهاية اليوم، عبرت كلماتها عما يجيش بروحي:

- لا يمكن أن تتخلى عنها الآن يا سامح، مرضها ليس بيدها، وإن كان الله قد اختار لها هذا الابتلاء، فالأفضل أن تكون بجوارها، فوجودك بجوارها لن يعوضه شيء آخر.

نظرت نحو أمي بامتنان، كنت على يقين أنها كي تصل لهذا القرار، قد رزحت تحت عبء نفسي هائل، وحملت نفسها مالا تطيقه، ولكنها في النهاية قامت بصلاة الاستخارة، ولم ترغب في قهر قلبين أحدهما يسكن في جسد مريض.

كان رضاها غايتي، ولم أكن لأغضبها بأن أتخذ قرارً ا مصيريًّا كهذا دون مباركتها له.

كفاها تلك التجربة القاسية التي عاشتها معي في وجود سلمى.

انحنيت على يديها فقبلتها، ودموعي تهطل من عيني غزيرة، فضمتني أمي إليها في حنان، قبل أن تقول :

- هل تحبها إلى هذه الدرجة يا ولدي ؟!.

وكأنني كنت بحاجة لهذا الاعتراف، فاندفعت قائلًا :

- وأكثر يا أمي ..إنها الشيء الوحيد الذي أطلبه من الله في هذه الدنيا.

ضمتني أمي أكثر، وقالت في خشوع :

- قدر الله وما شاء فعل، أين رقم هاتف أمها لنحدد موعدً ا للزيارة والخطبة.

ضممتها أكثر ودموع الفرح تغمر وجهي، وإن ظلت هناك غصة مريرة في حلقي، بددت معظم فرحتي، فبرغم كل شيء مازالت لبنى مريضة وتتألم، ومازال ذلك المرض الخبيث يستشري في جسدها، ويقتل أحلامها دون رحمة.

فلأي مدى ستصمد، وهل هناك أمل حقيقي في شفائها ؟.

ليس لنا إلا الله .

وبعد عدة أيام تم الأمر كما رتبت وليس كما أردت، ف لم تكن عودتنا للتواصل بنفس الحرارة السابقة.

فبرغم إتمامنا لمراسم الخطبة ومشاعر البهجة التي يجب أن تصحبها، إلا أن نفسيتها ظلت سيئة وفي تدهور مستمر، وذلك المرض الخبيث ينهشها من الداخل .

فانكسرت فرحتنا وكأنها لم تكن .

المقبض والمخيف في الوقت ذاته أنها كانت تتغير.

صفات كثيرة كانت تميز لبنى تبددت، وكأنما كان المرض الخبيث ينهش في جسدها وروحها معًا.

لم تعد بهجتنا صافية، لم تعد كلماتنا واثقة، وظللت أيامنا سحابة سوداء من القلق والترقب، والخوف من المجهول القادم .

كما أن كل الأمور تشابكت وتعقدت، وأصبحت تقودنا نحو مصير غامض وغير مطمئن مع انفلات الأعصاب، والعجز عن فعل أي شيء يبدل ما تؤول إليه مجريات الأمور.

وفي النهاية أصبحت أكثر حذرًا في حديثي معها، وطريقة تناولي لأي شيء يخصها مهما كان تافهًا أو بسيطًا، حتى لو كان يخص هندامها ؛ لتصبح طريقة التعامل بيننا أكثر صعوبة ومشقة.

المثير للأسى أن كل ما كنت أقوم به من أجلها كانت تتعامل معه بحساسية مفرطة، وتضع له ألف تفسير وتأويل.

وكأنه نوع من الشفقة أو العطف وليس حبًّا أو هيامًا بها. وبكل رضا وقبول وحب تحملت طريقتها العنيفة مقدرًا فداحة ما تمر به.

إنها تلك اللحظات التي خلق من أجلها الغفران، والذوبان في روح المحب.

إنها تلك اللحظات التي تفرق بين الحب الحقيقي والمصطنع.

وعشقي لها كان أصدق ما عشته في حياتي .

صمودي في هذه المرحلة سيثبت لها مع الوقت، أن كل شكوكها مجرد أوهام ترتع في براري عقلها الموحشة، وأن مرضها مهما كانت حدته أو خطورته لن يشكل أمامي عائقًا كي أعشقها وأتزوجها .

وفي الأيام التالية، حاولت بكل الطرق أن أضيق تلك الفجوة التي أصبحت تنمو بيننا باستمرار وبدون أسباب منطقية أو حقيقية. فقررت في هذا التوقيت الصعب الحصول على إجازتي السنوية، والبقاء بجوارها أطول وقت ممكن.

وخطوتي هذه جاءت متأخرة جدًّا، مقارنة بتدهور نفسيتها.

فقد بدأت تتقوقع وتعزل نفسها عن الجميع، وعني أنا بالذات.

ومع الوقت وصل الأمر بيننا إلى طريق مسدود، حتى إنني عندما طلبت منها مرافقتها لجلسات العلاج الكيماوي -الوسيلة الوحيدة لتجنب الجراحة- والتي كان من الواضح أنها غير مجدية ومؤلمة، كانت ترفض بشدة بل وتفتعل من المشكلات ما يجعلها تبتعد عني باليوم واليومين، وكأنها تعاقبني على اهتمامي بها.

كنت على علم تام، كم هي تعاني وتتألم من المرض، ومن المستقبل الغامض، ومن أجلي. وأعرف أيضًا أن من حقها أن تتألم وحيدة، ولكن

ليس من حقها ألا أكون بجوارها؛ لأخفف عنها ولو جزء يسيرًا من وطأة الألم .

لذلك لم أستسلم لمحاولاتها المستمرة لأبعادي عنها، فلم تفتني جلسة واحدة من جلسات علاجها الكيماوي، وكنت دومًا أنتظرها خارج معهد الأورام حتى تنتهي، وأشيعها بحبي ودعواتي لها بالشفاء حتى تصل لبيتها، دون أن أكشف لها عن حقيقية وجودي بالقرب منها.

كان الموقف أكبر منها ومني، وأكبر من أن تعبر عنه بضع كلمات حانقة، وبرغم ذلك كان ألم البعد يسحقني، وقد اعتدت منذ عرفتها أن تكون هي مسكن الآلام ومسببات السعادة. فأدمنت حياتي الخيالية معها، وهروبي منها إليها، فصارت الذكريات هي المخدر الذي يهون علي قسوة الأيام.

فكنت أسرح بخيالي إلى عالمنا البعيد، و أصحبها معي كل يوم.

وأمام البحر كنا هناك، عاشقين لا ينتظران من الحياة إلا مكان يجمعهما ورباط مقدس يكلل عشقهما، لينصهرا ويصيرا كيانًا واحدًا، ويرتشفا معًا من السعادة ما تعجز القلوب عن احتوائه .

وفي هذا اليوم الذي أصبح أبعد من لحظة ميلاد النجوم، وبصوتها الرخيم العذب قالت :

- سامح سأطلب منك طلبًا، وأتمنى أن تنفذه لي ؟!.

انتفض جسدي وتحفزت كل خلية فيه، كنت أرغب في أن أفعل أي شيء من أجلها، فأنا أعشق ابتسامتها الساحرة، وفرحة الأطفال البريئة التي تتقافز في عينيها كلما حققت لها طلبًا مهما كان بسيطًا، ولذلك قلت بصوت متلهف سعيد يحمل من المشاعر ما يكفي لنصف عشاق الأرض :

- حبيبتي تأمرني ..تشير فقط، وسامح سيكون عفريت المصباح ..وشبيك لوبيك ستكون أحلامك ملك يديكِ .

أطلقت ضحكة جذلة، وهي تنظر نحوي والعشق ينسكب من عينيها، وقالت بصوتها العذب :

- أقسم بالله أني أحبك يا سامح.. أحبك بجنون.. أحبك بطريقة أنا نفسي غير قادرة على استيعابها.. أتعرف..

سألتها بلهفة :

- ماذا ؟

أجابت بحرارة:

- على الرغم من كوني شاعرة، وحياتي قضيتها بين دواوين الشعر، وقصص الحب الرومانسية؛ إلا أنني لم أتخيل للحظة واحدة أن أعيش حب حقيقي يلمسني من أعمق أعماقي بهذه الطريقة مثل حبك. الحب كان في نظري شي ئًا خياليً ا من أجله كتبت الشعر، كي أستطيع لمسه

obeikandl.com

بيدي، ولم أتخيل أن يتحول في يوم من الأيام لإنسان من لحم ودم، يهيم بي ويكون على هذا القدر المعجز من الوسامة.

كنت مبهورًا من حديثها فظللت صامتًا، منتظرًا حتى تلتقط أنفاسها وتسيطر على خجلها لتستطرد :

- صدقني يا سامح لا تمضي دقيقة واحدة علي، إلا وأنا أفكر فيك، وأحدثك، وأسمع صوتك، وأسرح معك، أنت عوضتني عن الدنيا كلها، اختطفتني حتى من نفسي، وأنا بكل إرادة ورغبة مستمتعة بهذا الشعور، أنا أحبك ذلك الحب الذي يجهل عنه الحب كل شيء، والذي عجز كل الشعراء عن التعبير عنه منذ تعلموا الكتابة.

ساعتها وقفت كالتمثال عاجزًا عن التعبير، إن الأنثى التي تجيد التعبير عن مشاعرها هي هدية من الله، ولو طلبت مني ساعتها نجوم السماء، لأجبرت روحي على أن تصعد للسماء لإحضارهم لها.

وبأنفاس مبهورة قلت بصوت يموج بالمشاعر والعشق:

- لقد أعجزني كلامك عن الرد، فلو قلت أنك جميلة فهو ظلم فادح لكِ.. استثنائية.. لا يوجد مقارنة بينك وبين أي كائن آخر على وجه الأرض، لكن ما أستطيع أن أعدك به، هو أن أسعدك بكل طاقتي، وأن أكون كل شيء في حياتك، حبيبك وصديقك وزوجك وعمو عبده البواب لو تطلب الأمر.

احتضنتني نظرات لبنى وقد زادها السرور جمالًا، وقالت بصوت يضج بالفرح:

- إذًا يا عم عبده، أريدك أن تحضر لي حمص الشام من عند ذلك الرجل الذي يفترش الرصيف هناك، ليمون زيادة وشطة زيادة، وأنت من ستطعمني إياه بيدك.

انحنيت لها انحناءة مسرحية، جعلتها تطلق ضحكة رائقة وأنا أقول :

- هوا يا ست هانم .. أنا أسافر الشام مخصوص، وأحضره لكِ من هناك.

وعندما استدرت لأغادر، قبضت على يدي بقوة وكأنها تخشى فراقي، قبل أن تقول :

- سامح انتظر..

نظرت نحوها بلهفة :

- خير يا حبيبتي ..أتريدين شيئًا آخر ؟!.

سرحت في عيني، وكأنها تريد أن تخترق روحي :

- حاجة بسيطة يا سامح، أريد منك وعد !!.

ابتسمت لها وقلت:

obeikandl.com

- بدون أن أعرف التفاصيل، فأنا أعدك .

جزت على أسنانها بطريقة طفولية وقالت:

- لا يا سامح ليس بهذه الطريقة ..أنصت لي دون مزاح.

قلت بجدية:

- كلي آذان صاغية .

بصوت متهدج، قالت :

- أوعدني يا سامح.. أوعدني أنك لن تتركني لأي سبب، ولن يميل قلبك لأحد غيري.

نظرت لها ساعتها بتعجب، وقلت :

- أوعدك يا لبنى ..ولكن لماذا هذا الحديث الغريب الآن؟.

رمقتني بنظرة، لو كانت لتمثال من حديد لأذابته، قبل أن تقول :

- لأني أحبك يا سامح.. أحبك أكثر من أي شيء في الوجود، ولن أستطيع الحياة بدونك لحظة واحدة، ولأني خائفة أن يكون كل ما أحياه الآن حلمًا.

obeikandl.com

قبضت على يديها في قوة وحرارة يدها تذيب برودة يدي، واستنشقت عبير اليود من هواء البحر القريب وقلت:

- صدقيني يا لبنى ..الحلم والواقع أصبحا بوجودك في حياتي شيئًا واحدًا، أنتِ فقط من تملكين قلبي، والوحيدة التي سأظل أشكر الله على نعمة وجودها في حياتي.

لا يمكن أن أعيشك ثم أقتل ذلك الإحساس ببعد أو خيانة، عيناك الصارختان بحبي لا يمكن أن أجرحهم يومًا بدموع الشك أو القهر. أعدك مرة ثانية، ويشهد علينا الله والبحر، ولو تريدينني أن أشهد عمو الذي يبيع حمص الشام لا مانع عندي .

تحركت نحوي بلهفة ثم منعها الحياء وهي تهم بضمي إليها، وقالت بصوت يفيض بالشوق :

- أحبك يا مجنون ..

قلت في انفعال:

- وأنا أحبك أكثر وأكثر و أكثر.

شملتني بنظرة تحتوي كل مشاعر الدنيا، قبل أن تقول في ثقة وقوة وتحدٍ:

obeikandl.com

- لا يا سامح ، مهما أحببتني، فحبي لك سيكون أكثر، دومًا سأحبك أكثر، وحتى أخر لحظة في عمري، وهذا وعد .

كانت لحظة جنونية، طغت على كل شيء، شخصيتها المتحررة الصريحة المعبقة بالجنون كانت تسيطر عليها، وكأن وجودنا معًا، كان يفتح بابًا سحريًا على روحها لتنطلق بلا قيود نحو السعادة.

لقد عشت تلك الذكرى حتى تشبعت بها روحي، طيفها مسني من الأعماق، ولكنه لم يمنحني إلا سعادة وقتية، وبعدها عاد الحاضر الكئيب ليستحث دموعي ، ليرشح قلبي بالوجع.

كنت أبكيها وأبكي نفسي في ذات الوقت، أبكيها وكأنني فقدتها.

لا أعرف لماذا يتملكني هذا الإحساس البغيض. لا أعرف لماذا كتب علي وعليها أن نحيا هذه المعاناة. وبكل إيمان بالقضاء والقدر دعوت :

- اللهم لا تبتليني بها، ولا تحرمني منها، وردها إلي ردًّا جميلًا.

obeikandl.com

-8-

مضت الأيام ثقيلة كيأسي وعجزي، وتشتت الأمل في دهاليز الأرواح المعتمة، وتحولت كل الاحتمالات بأعماقي إلى كابوس ممتد أنهكني، وأحرقني، قبل أن ينثر رمادي الملتهب، في يوم ريح عاصف لم ترأف به .

وسحبتني الأحزان في دوامتها، فأصبحت أتعاطى الأرق والعزلة والصمت، و بهتت الحياة في عيني، وفترت عزيمتي، وكأنما كنت أدعو المرض ليستعمر جسدي كما استعمر جسد لبنى؛ لعلني أتوحد معها في إحساسها، ومعاناتها، ووجعها، وتخبطها.

ومن شرفات الأمل الخابية، تسرب اليأس إلى نفسي فكرهت الحياة وزهدت كل شيء، وتملكتني رغبة عارمة في مغادرة هذا العالم البغيض، وغرقت في ملكوت الاكتئاب، فلم أعد أغادر غرفتي.

الأرق بات صديقي الصدوق، والقلق أصبح رفيقي الثاني، وثالثنا كان الوجع.

وذات ليلة كئيبة من ليال كثيرة جفاني فيها النوم. حطمت أمي جدار عزلتي وخلوتي واستسلامي، بعد أن اقتحمت علي غرفتي التي أصبحت مفعمة برائحة التبغ والحزن، والخوف.

ليصدمها المشهد المحبط الضارب في جنباتها، وبكل ما يعتمل داخلها من قلق، قالت بصوت مشفق، وكأنه يصف الدواء لحالتي، وهي تفتح النافذة؛ ليدخل الضوء لعله يصحب معه الأمل:

- انهض يا سامح لتصلي الفجر جماعة في المسجد، و ادع لها، لعلها تكون ساعة إجابة، فتشفى مما هي فيه وتتجاوز محنتها.

كانت أمي قلقة على لبنى من واقع مكانتها عندي، ولكن قلقها الأكبر كان على فلذة كبدها وسندها في الحياة، والذي يقتله الحزن أمام عينيها.

إن قلب أمي رادار كاشف.

ومهما حاولت أن أخفي عنها سوء حالتي، فهي بإحساسها المتفوق تعرفه، وتعيشه، وتتألم بسببه .

إن حالة لبنى تتدهور، ولم يتبقَ إلا أيام قليلة على إجرا ءها للحل الأخير والمقلق، الذي سيحد من ذلك المرض الذي ينهش خلاياها بشراسة، أن تجري الجراحة لاستئصال تلك الأورام السرطانية الخبيثة.

كنت قد قرأت عن حالات مشابهة لحالة لبنى على الانترنت، وللأسف لم ينجُ منها إلا نسبة ضئيلة لا تمنح أمل بل تقتله، ولم يتبقَ لها منا إلا الدعاء ، وأمل أخير في رحمة الله وشفقته بنا .

لم يتوقف إلحاح أمي فنهضت من الفراش بتثاقل، وكأن جسدي الذي نحل عبر الشهور الطويلة الماضية صار أثقل من الجبال، وأوهن من خيط عنكبوت، وتوضأت، ثم ذهبت إلى المسجد .

لم أنقطع عن فرض واحد منذ مرضت لبنى، إلا في الأيام الأخيرة بعد أن ساءت حالتي النفسية، وكل فروضي كنت أصليها في المسجد أو على الأقل في جماعة، وكانت دعوتي الدائمة أن تشفى من مرضها، وأن تظل معي، أو يكون يومي قبل يومها.

لا يمكن أن أتخيل الحياة لحظة بدونها. الحياة بدونها موت على قيد الحياة .

***

كان علي في هذا اليوم أن أقوم بالتسليم النهائي لأحد مراحل المشروع الكبير ، لم أستطع التنصل من الأمر، بعد أن كاد صبرهم ينفذ علي في العمل، وبعد أن انتهت كل إجازاتي المتاحة وغير المتاحة.

لقد طال الأمر و أهملت أنا كل شيء من أجلها .

ثلاثة أشهر من المعاناة والوجع، و خيبات الأمل المتتالية.

ثلاثة أشهر لم نلتقِ فيها لقاء حقيقيًا، وكأنما كانت لبنى تمهد لما آمنت بحدوثه.. الفراق ..

وكليث جريح تحركت بداخل أسوار غرفتي التي ضاقت علي بما رحبت، وأنا أستجدي عقارب الساعة التي تتحرك في بطء، وتطأ روحي كحذاء السجان كي تتحرك أسرع.

لم أعد أطيق الحبس ولا رائحة الطعام الذي تعده أمي، وكأن الأمور على ما يرام .

لم يعد الكذب على نفسي مجديًا، ولم يعد الصبر مر المذاق حلًّا، لن أدور في هذا المدار المغلق إلى الأبد، كل هذا الغموض يقتلني، بل يفتتني ويجعل يقيني ينهار.

الظلام يتسلل من كل شيء إلى روحي .لا نجاة في هذا المنفى .

لابد أن أخرج الآن.

سأتسلل مثل اللصوص فلن أتحمل وطأة نظرات أمي المشفقة، ولا الإرهاق الذي كسا ملامحها، قلبي لن يتحمل وجعين في وقت واحد .

وقد كان ..

وأسفل البناية، وقفت بجوار سيارتي أدخن سيجارتي الخمس ين لهذا اليوم الذي بدأ من منتصف الليلة السابقة، إنها الوسيلة الوحيدة المتاحة؛ لأنفث عن روحي كل أجزائها المحترقة، ولم تكن وسيلة ناجحة على كل حال.

الصباح هادئ برغم الضجيج الذي يجتاح رأسي، والأشجار مغسولة بالندى، والشوارع شبه خالية، وكأن كل شيء على ما يرام على هذا الكوكب الكئيب.

الحياة تمضي وكأنها لا تعبأ بنا من الأساس ، مجرد قصة حزينة أخرى تتضفر مع خصلات يوم بارد.

لا جديد، لا عزاء، فقط الحزن يتكاثف بأعماقي، ليتمكن مني الظلام أكثر وأكثر.

نفثت من فمي خيط طويل من الدخان حمل كل ضيقي، وتوتري، وسخطي، وعندما أشرفت السيجارة على النهاية، ومع لسعة النفس الأخير، لمحتها قادمة من بعيد.

لا يمكن أن أغفل عن هيئتها، ولا عن تكوينها الجسدي المميز، فلا أحد ينسى قاتلته، ولا صدمة عشقه الأولى .

كانت القادمة هي سلمى خطيبتي السابقة.

مصادفة سخيفة وفي توقيت أسخف، جعلتني أتحفز وأكشر عن أنياب غضبي، كانت فرصة سانحة لأصفي حسابي مع الماضي، بعد أن أنهكني عجزي عن تغيير الحاضر.

مازالت جميلة كما رأيتها أول مرة.

obeikandl.com

لو كانت الخيانة تشوه الجسد كما تشوه الروح، لكانت تحمل الآن ملامح شيطان، ولكن هذا لا يحدث في الواقع للأسف، ظلت كما هي زهرة رائعة الجمال تحمل قلبًا ميتًا

الأمطار بدأت في التساقط برزاز خفيف منعش، وفي عقلي دار التساؤل:

هل أنا قادر على المواجهة، ولماذا أنا حريص عليها هكذا ؟!.

أتمنى ألا يحدث ذلك، لا داعي لمواجهة لا يوجد خلفها إلا المزيد من الألم والضيق ، والذكريات السيئة .

من الصعب أن يكره قلب أحب وتعلق وسهر وعاش الأحلام، ولكنه عندما يكره، لا يغفر ولا يتغير لحظة واحدة، وتظل الكراهية تضنيه، كما أسعده الحب من قبل .

سحقت عقب السيجارة بقدمي في قوة غير مبررة، وبصري معلق بها، وكل جزء في روحي يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها .

اقتربت بجسدها الرشيق، وتبرجها الكامل، وعطرها الفواح الذي يسبقها.

كنت أذكر أنها دائمًا ما تصف سيارتها في مكان بعيد نسبيًا عن منزلها، لتجبر نفسها على ممارسة رياضة المشي لتحافظ على قوامها ومصدر أنوثتها وتميزها، وسلاحها الوحيد .

هممت بركوب السيارة والمغادرة بعد أن قهرت شيطان غضبي، عندما صفع أنفي عطرها.

إن لهذا العطر ذكريات لا تحصى. ذكريات أتمنى لو أفقد الذاكرة كي لا تعاودني .

نظرت نحو عينيها المتحديتين، فشعرت بغصة داخلي وبتوتر. وبأعماقي تعاظم إحساس بالنفور، أنا لست في حالة نفسية جيدة لتتم هذه المواجهة ، ولكنها كانت للأسف تنوي خوضها.

ودون سلام ابتدرتني قائلة بصوت بارد شامت:

- ما هي أخبار لبنى، هل من جديد عن حالتها ؟.

لا أعرف لماذا غزت جسدي برودة مفاجئة، ولأنني كنت أرغب في أن ينتهي الأمر سريعًا أجبت :

- بخير الحمد لله ..هناك تقدم في حالتها.

منحتني نظرة كارهة تحمل كل بغضها، قبل أن تقول :

- لا أعتقد أن كلامك هذه صحيح، كم أدعو لها من كل قلبي أن يشفيها الله، ويرحمها منك .

صدمتني الجملة كلها، فعجزت عن الرد لوهلة، فاستطردت قائلة :

- أنت نحس كبير يا سامح، من يعرفك لا يناله إلا الوجع والألم، وكسرة النفس ..سلام .

اجتاحني الغضب حينها، وتمنيت ساعتها لو أمكنني أن أقبض على عنقها بيدي لأهشمه كي أحرر العالم من هذا القلب الأسود الكريه، ولكني كنت قد تجمدت في مكاني من أثر الصدمة .

فتركتني وحيدًا أنزف من داخلي للمرة الثانية، ومضت في طريقها وكأنها لم تجدد إهانتها وانتهاكها لكرامة إنسان، كان في يوم من الأيام كل ما ترجوه من الله والدنيا .

وبكل ما في من غضب وتوتر ركبت سيارتي، ثم قبضت على المقود بقوة وأنا أصرخ بجنون كاد يقتلعه من مكانه:

- أنا لست نحسًا يا سلمي ..أنت فقط الخائنة والمادية والحقيرة.

أفرغت غضبي خلف زجاج السيارة المغلق، ثم انطلقت بها نحو موقع العمل لأباشر مراحل التسليم النهائي للمشروع مع بعض الزملاء والزميلات من الفنيين والمهندسين، و روحي تنتفض بداخلي كطير ذبيح .

كان يومًا طويلًا وشاقًا خاصة مع بدايته السيئة، والتبغ، وجالونات القهوة التي كنت أتناولها طوال الوقت، ولكنني في النهاية أنهيت الأمر، وتم تسليم المشروع للجهة المشرفة مع ثناء كبير.

كانت لمحة من الأمل وسط أيام لم تعد تؤمن به، وقبل أن أغادر بلحظات أتاني اتصال من لبنى، ليخفق قلبي بقوة ويجتاحني القلق والخوف، لم أكن في هذه الأيام أتوقع إلا كل سوء، لذلك رددت مباشرة :

- صباح الخير يا حبيبتي، هل أنتِ بخير؟ .

جاء صوتها المرهق ليقول :

- بخير يا سامح ..أتمنى لو تمر اليوم مساء، لتصحبني في أحد المشاوير.

وبكل لهفة قلب وجد واحة غناء، بعد ليالي طويلة قضاها في صحراء جافة قلت :

- أنا رهن إشارتك، في أي ساعة وأي مكان ؟!.

جاءني صوتها الواهن ليقول :

- في الساعة السادسة، تمر علي في البيت أولًا، ثم سنذهب بعدها إلى ساقية الصاوي، هناك لقاء ليوسف زيدان أريد أن أحضره، وسنقابل خلالها صديقتي وصال وستكون فرصة لتتعرف عليها.

كنت أشفق عليها من مشوار مماثل ومرهق، ولكني لم أرغب في أن أضايقها لذلك قلت :

- ستجديني عندك في الموعد تمامًا، كما أنني أعرف وصال جيدًا .

obeikandl.com

جاء ردها الغامض قبل أن تنهي المكالمة :

- ربما أنت بحاجة لتعرفها أكثر..أنا وهي روح واحدة في جسدين .

لم أستوعب ما تشير إليه، ولكنني لم أملك أن أعارضها، ربما هي تريد أن أكون أنا ووصال بجوارها.

هكذا كل من يمر بمحنة أو مرض، يرغب في أن يكون كل من يحبهم بجواره، وعلى درجة أعلى من التواصل.

وبرغم أن المكالمة كانت قصيرة وموجزة وفاترة من ناحيتها، إلا أنها بثت في روحي خليط من المشاعر الإيجابية الهادرة

وانعكس هذا على يومي كله وتعاملي مع الجميع، وكأنما أعاد لي صوتها الحياة والإحساس بكل ما حولي، وأنساني موقف سلمى السخيف، و إرهاق العمل وقلة النوم، وفي هذه اللحظة اشتقت لشيء واحد.

للتانجو .

وبكل ما في كياني من لهفة، أدرت مؤشر الراديو ليلتقط من فلاشتي المحمولة، أنغام التانجو العظيمة ..

وأثناء قيادتي للسيارة، كنت في عالم آخر .

عالم لا يحتوي سوانا.

و التانجو .

الموسيقى التي خلقت مني شخصًا آخر، وجعلتني أحلق في سماء العالم بلا أجنحة أو مجهود .

ولبنى كانت تعشق التانجو.

ومع طيفها، تجلى لي الغيب، وانفتحت في روحي كوة للسعادة، و انفصلت عن العالم لأحيا في دنيا لم تعد تنبت أزهارها على هذا الكوكب، ولكن بقي عبيرها يفعم روحي ويهدهدها .

obeikandl.com

-9-

استيقظت بعد العصر على أحلام كثيرة مزعجة ومتداخلة بطلتها لبنى، وعلى عرق كثيف يغمر وجهي والوسادة، تصحبه انقباضة باردة بداخل صدري، مع تشوش محدود بالذاكرة، وحالة عامة من الإرهاق وعدم الراحة.

لم أعرف من الأساس كيف نمت ولا كيف استيقظت، لابد أن جسدي نفسه قد تمرد علي معاملتي السيئة له، ولكنه أبى أن يفقدني موعدي مع حبيبتي، فاستيقظت في الوقت المناسب كي ألحق بما تبقى مني، طاردًا كل مخاوفي وكوابيسي، حالمًا بمعجزة تبدد كل هذا الظلام من حولي .

كان أسوأ كوابيسي أن تسيطر العزلة على لبنى، ومعها تفتر مشاعرها تجاهي أو تقنع نفسها بذلك فتوأدها، لأفقد أنا حب حياتي، وتظن هي في النهاية أنها فعلت الصالح للجميع ، وقدمت تضحيتها بكل عقلانية .

للأسف يا لبنى لا يمكن أن تحكمي العقل في المشاعر.

القلب وحده صاحب الكلمة الأخيرة، وللقلب عقل خاص به، لا يفكر ولكن ينبض بالحب .

كل عزائي أن من يقدم التضحية ماز ال على عهده، ومازال قلبها برغم قناعاته غارقًا في العشق .

كم أوحشتني يا حبيبتي، وكم يهفو القلب للحظة من زمننا القديم، قبل أن يحتلنا القلق والخوف والمرض، وفقدان الثقة في الغد.

أخاف فقدك، بُعدك، حزنك، حالتك الصحية، حالتك النفسية، تفكيرك الذي تخطى كل مراحل المنطق .

أخاف من الخوف نفسه، والذي بدأ يستولي على أرواحنا، والذي قد يسلمنا للجنون فنفترق.

الخوف الذي أصبح يلازمني في كل وقت، حتى في أحلامي.

أعرف جيدًا أن الأحلام السيئة هي مجرد انعكاس طبيعي ومؤلم لما في العقل الباطن من هواجس وأفكاروقلق، وبرغم ذلك لم أستطع تجاهلها، و ا ستطاعت الكوابيس أن تفسد بهجة يومي، وبداخلي وقرت فكرة واحدة:

- لا يمكن أن أفقدها.

لن أستطع أن أحيا بدونها أبدًا، أنا أحبها، بل أعشقها، ولكن كل الشواهد تدل على أن الفراق قريب.

إن عشقها الكامل يرفض نقص أنوثتها بمرضها، لذلك فهي تمهد لفراق رقيق، وربما لقاء اليوم، هو الموعد الأخير الذي سيجمعنا، وهو ما لن أسمح به.

بكيت كثيرًا، وشهدت غرفتي أناتي ودموعي، وشعوري بالعجز والتقصير.

وعندما يبكي الرجال ينفطر قلب الكون نفسه، فالرجل لا يبكي إلا على حدث عظيم ، ومصيبة تساوي الحياة نفسها على الأقل.

الدموع هي المسكن الإلهي الأعظم، وهي منحة الله للمجروحين والموجوعين.

ولكنها أحيانًا تكون دليلًا مؤكدًا على العجز.

كل الأمور كانت مشوشة بداخل عقلي، الشعور بالضياع قاتل، إن حبي لها يطغي على أي مشاعر أخرى، وقلقي عليها يجعلني لا أستطيع منعها من خوض الجراحة.

وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أقتل بداخلها الأمل أنها قد تخوضها، وتخرج منها سالمة ، فتنتهي أيام المعاناة والاضطراب والألم.

لقد تعبت جدًّا من متابعة ما تمر به، وقتالها وحيدة ضد عواصف الحياة، ومحاولتها أن تظهر أكثر قوة وتحملًا.

إن إظهار الضعف في الكثير من الأحيان يريح القلب والروح، ومشاركة الوجع قد يخفف من وطأته.

وكان عنادها وإصرارها على أن تخوض محنتها وحيدة؛ يضنيني أكثر مما يضنيها هي شخصيًا، ولكني في النهاية كنت أُقدر ما تمر به من معاناة .

فقط علي أن أتوقف عن لوم نفسي على تقصيري معها، فما يحدث لها ابتلاء من الرحمن لنا جميعًا، وعلينا أن نتقبله كي تطولنا رحمته .

صليت العصر ودعوت لها وسط دموعي، وقلبي معلق برحمة السماء..

لم يبق لنا أمل إلا معجزة من الخالق ترفع عن كاهلنا كل هذا الوجع، الله وحده من سيقدر مصيبتنا ويعيننا عليها .

لبنى هي روحي ، ولو غابت عني أموت .

لبنى هي نكهة الحياة، ولو فقدتها فقدت كل شيء.

الوجع كل الوجع، أن تفقد من تحب، أن تراه يُسرق منك، يزوي وتزوي أحلامك معه، هي خسارة لا يماثلها خسارة أخرى في الكون، ولا يوجد عزاء يمكن أن يعوض عنها، أو يهونها .

فعندما نعشق تتشابك روحنا مع روح من نحب، بل تنصهر وتذوب ليصيرا روحًا واحدة، تفرح وتتألم، وتعيش وتموت في نفس اللحظة.

كيان عاشق، وإحساس عالي مشترك، ومصير واحد .

يا ليتنا نستطيع أن نهب حياتنا لمن نحب، نتقاسم معهم أعمارنا الباقية، ونعيش معًا ونموت معًا.

يا ليتنا نملك القدرة على أن نحمل عنهم كل السوء ليكونوا بخير.

وبكل ما بداخلي من وجع تمتمت:

- حبيبتي كوني بخير..كي يظل كل شيء بخير.

***

في هذه المرحلة العصيبة لم أكن أجابه مشكلة لبنى فقط، أمي أيضًا كانت مشكلة أخرى، مشكلة أكبر. فمهما كانت درجة حب لبنى لي، ومهما كانت الصورة التي كونتها عني، فأنا في عين أمي الحياة والسند والمستقبل القادم.

كل هذا كانت تراه ينهار ويزوي أمام عينيها، دون أن تنجح في منعه. أمي التي كانت تحلم لي بزوجة سليمة وحياة مستقرة، ومستقبل مشرق، تراني أضيع من بين يديها، والمؤلم أنها لا يجب عليها أن تظهر كل هذا لتدعمني في محنتي.

obeikandl.com

كنت أخوض الصراع النفسي القاتل على كل الجبهات، وحاولت بكل جهدي ألا أخسر كل شيء؛ لذلك تحاملت على نفسي في ذلك اليوم، وتناولت الغداء معها متجنبًا نظراتها المشفقة، والتي لم تتوقف عن إمطاري بها لحظة واحدة، وأظهرت لها بهجتي بالطعام برغم أن نفسي تعزف عنه.

فأنا أعرف طباعها جيدًا، فلن تأكل تلك العزيزة إلا لو أكلت أنا.

وعلى منضدة الطعام دار حوار بسيط بعيدًا كل البعد عن المنغصات، بل وحاولت أمي أن تنتزع مني بعض الضحكات، وكنت أجاريها، فلا ذنب لها فيما يحدث .

بل تظاهرت بأن حديثها قد فتح شهيتي على الطعام، فأكلت فوق طاقتي، حتى شعرت بأن معدتي نفسها ستنهار مع كل الرفض الداخلي.

وعندما انتهينا قررت أن أغادر مبكرًا، لأعد مفاجأة صغيرة للبنى أتمنى أن تبدل مشاعر الحزن التي سكنت ملامحها .

حلقت ذقني التي استطالت في غير تهذيب، وانتقيت ملابس مناسبة ومبهجة ومازالت تناسب مقاسي بعد أن نحلت من أثر الأيام الماضية، وقررت أن أسعدها هذه الليلة بأي وسيلة .

فالسعادة عدوى، وسعادتي ستجعلها سعيدة؛ هذا ما دأبت دائمًا على قوله لي في كل لقاءاتنا التي سبقت مرضها..علي فقط أن أتجاهل تلك الغصة المؤلمة التي تموج بروحي، وذلك الإحساس الذي يخبرني أني أدعي السعادة، ولا أعيشها حقًّا.

علي أن أنسى نفسي الآن، ولا أفكر إلا في إسعادها.

تعشق لبنى الزهور، والشيكولاته. لذا أحضرت لها باقة من الورود الحمراء، وقالبين من الشيكولاته التي تهيم بها عشقًا.

كما أنني كتبت لها على البطاقة المرفقة بالباقة بعض الأشعار من وحي اللحظة كلمسة رومانسية إضافية. وكل ما أريده منها أن أحظى بابتسامة حقيقة تكون نابعة من قلبها الموجوع .

إن التفاصيل البسيطة كالورود و الشيكولاته تعني الكثير لكل أنثى، فهي تؤكد على شيء واحد:

" أنا بجوارك مهما ساء الأمر، وقلبي إلى الأبد يخفق بحبك" .

التفاصيل الصغيرة هي النكهة الحقيقية للحياة .

انتهيت من كل إعدادات اللقاء، ثم عرجت على مغسلة قريبة من بيتها، وغسلت السيارة من الداخل والخارج وعطرتها بمعطر الخزامي الذي

تعشقه، وفي السادسة تمامًا كنت أسفل منزلها، وبداخلي أحلام من زمن الفرح الماضي ، وكعادتها كانت جاهزة وتنتظر ظهوري لتهبط من المنزل .

يا الله على طلتها وسحر حضورها ..

مازلت أراها برغم شحوبها أجمل نساء الأرض، لا يمكن أن يغير مرض أو وجع نظرتي لها .

مازالت أنيقة وتعني بكل التفاصيل، شعرها، ثيابها، طلاء أظافرها، عطرها، وتلك الابتسامة الباهتة التي ظللت وجهها، وحرصها على أن تبدو أقوى وأكثر قوة.

إن عنادها وصمودها أسطوريان.

لا يمكن أن يهزم المرض، قلب رائع كقلبها، ولا روح عنيدة كروحها.

خرجت من السيارة بكل لهفة، واستقبلتها بكل شوق وحرمان الأيام الماضية، كنت أتمنى لو ضممتها و احتويتها بداخلي لأخبرها بكل حب أنني مازلت على العهد، ولأطفئبصدرها شوقي الهادر الذي يضنيني.

وعلى خلاف ما تمنيت كان الشارع يغص بقاطنيه والرائحين والغادين، فلكتفيت بأن فتحت لها باب السيارة المجاور للسائق في حركة مسرحية انتزعت من داخلها ابتسامة حقيقة، وجعلتها تردد بصوت خافت مخضب بالحياء :

obeikandl.com

- لا يمكن أن تدللني بهذه الطريقة، فقد أتعود عليها.

نظرت نحوها بهيام، في محاولة فاشلة مني لسبر أغوار حالتها هذه. هل هي فرحة حقيقية نابعة من قلبها، أم مجرد حالة من التعايش الوقتي تحاول أن تسبغها على نفسها، كي تشعرني بأنها أفضل، قبل أن تسحقني بقرارها.

ومن لمعة عينيها أدركت صدق مشاعرها، فقلت لها بسعادة واضحة:

- ليتك تتعودين عليها.. إنها أول مراحل الدلال.

نظرت نحوي بتساؤل، والشقاوة تطل من عينيها، حتى إن قلبي شمله خوف غير مبرر. فحالتها كانت من النقيض إلى النقيض، وكأنها وصلت لسلام نفسي من نوع ما، لا أعرف متى ولا كيف وصلت إليه، وهذا وترني أكثر.

وبرغم كل أحاسيسي المشوشة، قررت أن أغتنم هذه اللحظة النادرة من السعادة، وأنهل منها حتى ترتوي روحي.

وبكل ما يعتريني من حماس تناولت من المقعد الخلفي للسيارة باقة الورود الحمراء، وقالبين الشيكولاته، وبكل ما يعتمل بصدري من مشاعر، مددت يدي بهم نحوها وقلت :

- اشتقت إليك كثيرًا يا لبنى .

تناولت مني باقة الورود الحمراء بلهفة وكأنها بحاجة للمسة مماثلة، وقد أنارت وجهها ابتسامة جديدة انطبعت في مقلتاي، وضمت قالبي الشيكولاته إلى صدرها، وهي تمنحني نظرة امتنان وعشق.

نظرة جعلت قلبي يرقص من الفرحة لأنسى كل شيء في الدنيا إلا وجودها بجواري، ولانطلق بالسيارة نحو منزل وصال، وأنا أتأمل ابتسامتها العذبة، وهي تقرأ ما كتبته لها من كلمات في البطاقة المصاحبة للباقة، وبكل ما بها من سعادة مدت يدها اليسرى لتلامس يدي اليمنى، لتقبض عليها بقوة قبل أن تقول بمرح :

- يعجز لساني عن شكرك، وعن دعمك الدائم لي وما تفعله من أجلي، شكرًا على الورد و الشيكولاته، لكن لي رجاء وحيد، لا تحاول أن تكتب الشعر مرة أخرى، فما كتبته هنا جريمة ويعاقب عليها القانون .

انطلقت أقهقه بسعادة احتواها زجاج السيارة المغلق، قبل أن أقول بمرح حقيقي:

- لا تبخسيني حقي دون أن تعرفي مواهبي الأخرى، أنا لا أكتب الشعر فقط ولكني قادر أيضا على الغناء من أجلك.

وهنا زقزقت العصافير وغنت البلابل، وخرجت كلماتها محملة بمشاعر الفرحة الطاغية، وهي تقول بأحاسيس طالما افتقدتها في الأيام الماضية :

- أنت تغني يا سامح.. لا أرجوك.. أكتب شعرًا.. الشعر أرحم من التلوث الضوضائي الذي ستسببه.. ولماذا التهور.. ركز أكثر في الهندسة.. مالها الهندسة يا سامح.

غمرت الفرحة قلبينا وكانت بردًا وسلامًا على أرواحنا، حتى إن من يرانا لن يعتقد للحظة واحدة أننا عرفنا الوجع، وأدمنت أيامنا الحزن، لن يرى إلا صورة مبهجة لعاشقين تنتظرهم كل أحلام السعادة لتتحقق.

دقائق ووصلنا للحى الذي يوجد به منزل وصال تظللنا جنيات البهجة، ويشغل عقولنا ذلك السؤال الذي لا إجابة عنه :

- كيف يمكن أن تختصر السعادة والفرح والحياة في شخص واحد دون الدنيا كلها ؟!.

وصلنا إلى منزل وصال في وسط البلد المزدحم، فهاتفتها لبنى لتهبط، وعندما أقبلت على السيارة، خرجت منها لبنى لتستقبلها في احتفاء، وأخذتها بين ذراعيها وقبلت وجنتاها في شوق، وبادلتها وصال الشوق بشوق أعظم منه والحزن يكلل نظراتها، ويفسد ابتسامتها المفتعلة .

وبعد مشاعر الترحاب الصادقة التي تبرز مدى تعلق كل منهما بالأخرى، استقلتا السيارة، وقمت بتشغيل إحدى أغنيتنا المفضلة (أصابك عشق) بصوت مرتفع شع بالدفء في أرواحنا ،والحقيقة أن البهجة شاعت بيننا،

نحن الثلاثة، حتى إننا ودون اتفاق أخذنا نغني مع المطرب بصوت مرتفع، وكأنما أصابنا لوثة من الجنون .

كنا ثلاثتنا نتشبث بـآخر خيوط السعادة لهذه الليلة، وكأن بيننا اتفاق غير معلن على أن تكون هذه الليلة مختلفة، من أجل لبنى، وأخذنا نتغنى بكلمات الأغنية التي كررناها عدة مرات، حتى وصلنا إلى ساقية الصاوي أرواحنا نفسها تردد في نشوة .

أَصَابَكَ عِشْقٌ أَمْ رُمِيتَ بأسهمِ

فَمَا هَذِهِ إلّا سَجِيَّةُ مُغْرَمِ

أَلَا فاسقِني كَاسَاتِ وَغَنِّ لِي

بِذِكْرِ سُليمه والكمانْ ونغِّني

دَعْ عَنْكِ ذكرَ العامريةِ إنني

أُغَارُ عَلَيهَا مِنْ فَمِ المتكلمِ

أُغَارُ عَلَيهَا مِنْ ثيابها

إذا لبستها فوق جسم منعم

أُغَارُ عَلَيهَا مِنْ أَبِيهَا وأمِها

obeikandl.com

إذا حَدَّثَاهَا فِي الْكَلاَمِ المُغَمغَمِ

وأحسد كاسات تقبلن ثغرها

إذا وضعتها موضع اللثم في الفم

***

وصلنا إلى ساقية الصاوي كان لقاء الكاتب يوسف زيدان قد بدأ بالفعل بل ويكاد ينتهي، والمكان مزدحم كعادة ندواته برغم الأجواء الباردة، ولم تبدي لبنى الاهتمام المناسب بالندوة، وكأن الأمر مجرد حجة لنلتقي.

فقط طلبت منا أن ننتظرها في الكافتيريا المطلة على النيل، لنحتسي مشروبًا حتى تلحق اللقاء قبل أن ينتهي؛ لأن وصال لا تغريها هذه الأجواء.

وهنا بدأ شك مريب يتسرب بداخلي، وحيرة لم أجد لها أي تفسير، ولكنني عزيت كل الأمور لحالتها المتقلبة .

جئت بالمشروبات الساخنة لي ولوصال، وجلسنا سويًا صامتين ننظر للقمر الذي بدأ يعانق صفحة النيل وسط ضجيج الحضور، كنا نترقب ظهورها، ولكنها لم تعد في سرعة، فبدأت أتحدث مع وصال على سبيل الذوق والمجاملة و إسجاء الوقت.

ووصال كانت مصرية ذات أصول خليجية. الأب مصري والأم سعودية، وكنت أحب لهجتها المزيجة بين الاثنان، جمالها عربي أخاذ، وروحها جميلة.

لم تكن بيننا أحاديث مشتركة إلا لبنى فتحدثنا عنها، ولم يكن معظم الحديث بهيج فلبنى أصبحت خزانة أسرار مغلقة حتى على أقرب صديقتها، ومثلي تتابع وصال حالتها عن طريق والديها.

وسعدت وصال عندما تذكرتها لبنى التي لم تعد تجيب على هاتفها منذ فترة في عزلتها الاختيارية، وعندما وصل الحديث إلى ذلك الجنون الذي قمنا به في السيارة، شاعت البسمة بيننا.

ومن طرف خفي لمحت لبنى ترقبنا من خلف شجرة قريبة، وعلى عكس ما يتطلبه الموقف من غيرة أو ضيق وجدتها تبتسم في فرح، وساعتها لم أفهم سر سعادتها، وعزيته للندوة التي لحقت منها نهايتها لكاتبها المفضل .

لوحت لها فأقبلت تخطر في خطوات رشيقة أعشقها، والابتسامة مازالت تغمر وجهها، ابتسامة جعلتنا نبتسم دون سبب ونبادلها الابتسام .

وبكل ما بداخلها من فرح وجدتها تشير لنا أن نقترب من بعضنا لأنها ترغب في أن تلتقط لنا صورة (سيلفي) بهاتفها ونحن مبتسمين، وتم الأمر بالفعل .

أي طلب سيسعدها سنلبيه لها في الحال، حتى ولو كان القفز في النيل، إنها لحظات خاصة جدًّا ولا يمكن أن نحبطها فيها .

جلست لبنى بجوار وصال وليس بجواري كما اعتدنا، وقد شع وجهها بالفرح ، لابد وأنها تهيم عشقًا بوصال .

تطرق الحديث بيننا عن الندوة والشعر والأدب عمومًا، لم يقترب أحدنا من حالتها أو مرضها.

وطوال الجلسة كنت أتأملها وبداخلي قلق غريب، إنها ليست طبيعية أبدًا، حديثها وطريقتها، وحالتها، وتلك الابتسامة التي لا تفارق شفتيها . الأمر مريب، ولكني تجاوزت عنه مؤقتًا فقط لكونها سعيدة، وعندما اقترحت تلك اللعبة الغريبة جاريناها فيها :

-كل منا سيخبر الآخر عن رأيه فيه، لو قابله أول مرة دون أن يعرفه مسبقًا.

كانت وصال ذات روح خفيفة وتحب المرح لذا فإنها وافقت على الفور، في حين أبديت أنا بعض التحفظ وأمام إصرارهم رضخت مبتسمًا.

وعقابًا لي كان علي أن أبدأ، وأن أخبرهم رأيي في لبنى :

- لبنى شمس خجولة، لو قابلتها دون أن أعرفها، لعشقتها على الفور، لقد استولت على قلبي من أول نظرة .

قلتها وابتسمت، ثم تلاشت بسمتي مع ملامح الضيق التي ظهرت على وجه لبني، وكأنها كانت تتوقع ردًّا مختلفًا، وحتى تخفي ضيقها قالت بمرح مفتعل:

- وبالنسبة لوصال التي تغار الشمس من جمالها، ماذا تقول عنها لو قابلتها لأول مرة ؟.

ابتسمت وصال في براءة، وأخذت تنظر نحوي بلهفة، لترى ما يمكن أن أذكره عنها. وفي هذه اللحظة رن هاتفي المحمول ورحمني من هذه اللعبة ثقيلة الدم، كان مستر ناجح يخبرني بمهمة عاجلة في الغردقة لابد وأن أقوم بها على عجل.

حاولت التملص منه دون جدوى. كان يعاملني كابن له ولم أرد أن أخذله في النهاية، وعندما عدت، وأخبرتهم ا بفحوى مكالمتي،كان حديثي هو نهاية الليلة، و بإصرار غريب صممت لبنى على أن أقوم بتوصيلها أولًا، ثم أقوم بتوصيل وصال بعدها إلى بيتها.

وكالعادة رضخنا لطلبها الغريب، فلن يكون أغرب ما في الليلة، خاصة بعد أن أصرت على أن نتبادل أنا ووصال أرقام الهواتف .

هبطت لبنى من السيارة أمام منزلها مبتسمة مبتهجة، وأشارت لنا بإشارة الوداع، ولم أستطع أنا أن أكبح جماح فضولي أكثر، فهبطت خلفها وسألتها:

- لبنى لماذا كل تصرفاتك اليوم غريبة وغير مفهومة؟! .

نظرت لي بشفقة ،ثم ابتسمت وقالت :

- لا تقلق يا حبيبي كل الأمور بخير، فقط أحرص على وصال، ولا تضايقها أبدًا.

شعرت بغضب غريب- ما علاقة وصال بأي شيء - ولكني كبحت لجامه وأنا أتساءل في ضيق :

- لماذا أضايقها أو أبهجها، ما علاقة وصال بأي شيء، ما بيننا مجاملات لأنها صديقتك لا أكثر.

ابتسمت مرة أخرى، و ظهر مع بسمتها حزن مستتر، وهي تقول :

- المهم احرص عليها، وعاملها كأنك تعاملني، فإن هذا سيسعدني .

ودعتني ثم غادرت، فعدت إلى السيارة في حالة من الحيرة، وطوال الطريق إلى منزل وصال لم ننبس ببنت شفه، حتى عندما غادرت إلى منزلها ، ورحلت في صمت، وتركتني خلفها أغلي من الحيرة والتساؤلات .

obeikandi.com

-10-

ليلة أخرى بلا نوم .

الدماء تنبض بداخل عروقي من كثرة ما تناولت من منبهات وكأنها ستنفجر، التساؤلات تلهب عقلي الذي لم يتوقف لحظة واحدة عن التفكير في صحة لبنى وحالتها الغريبة.

أهز رأسي كي أبعد الأفكار الكئيبة التي ترجمها دون رحمة .

أكان هذا اللقاء العجيب هو الوداع؟.

هل سأعود من سفري لأجدها قد تخلت عن دبلتها وارتباطها بي، بعد أن تخلت عن وجودي بجوارها طوال الأسابيع الماضية ؟.

القلق ينهشني، والسفر في هذا التوقيت مزعج، والأيام ثقيلة ؛ أتحرك خلالها بالقصور الذاتي.

بقايا إنسان يائس ينحت في صخر العمل، لا أعرف حالتها إلا ممن حولها، وأصواتهم التي لا توحي بأي تحسن أو بزوغ أمل جديد.

هاتفها مغلق كأمل آفل، وأنا في البعد ملهوف، وأتجرع ألف نوع من الحنين.

obeikandl.com

وساعتها أقسمت بيني وبين نفسي أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي سأسمح لها ولنفسي أن نكون بعيد ين عن بعضنا، سأكون بجوارها مهما كلف الأمر، ولو رغمًا عنها.

سأعيش ما تعيشه وسأكابد ما تكابده، ولن أتركها مهما كانت رغبتها .

الأنثى تطلب البعد ولكنها لا ترغب فيه أبدًا، بل مطلبها الحقيقي هو الوصال والقرب .

والدرس الذي يجب أن يتعلمه كل عاشق، أنه لا راحة في البعد، مهما كانت قسوة الظروف ، ومهما كانت قلوبنا تؤيد الأمر، فالقلوب تخدع أحيانًا ولا تحسن تقدير الأمور .

كم كنت أحمقًا وغافلًا، فمن يعشق لا يبعد ولا يفارق.

إن الفراق قدر التعساء، لذلك لا يغفر أبدًا التاريخ لقصص العشق الفاشلة ويخلدها، فتمس شغاف قلوبنا .

العشق قدر مؤلم، وموجع، وموحش، ومضن؛ إن كان حبيبك بعيدًا عنك .

***

obeikandl.com

أنهيت مهمة العمل العاجلة في الغردقة خلال فترة وجيزة وبفارق يوم كامل عن الموعد. لا أعرف حقًّا كيف أنهيت كل هذا القدر من العمل في تلك الفترة القصيرة ، ولكني كنت أشعر بها بجواري، تدفعني دائمًا إلى النجاح برغم دقة موقفها وما تكابده.

فبعض الأشخاص مجرد وجودهم في حياتنا، هو دافع دائم كي نصبح أفضل مهما كانت الظروف والعقبات التي تواجهنا، مجرد وجودهم يصنع النجاح نفسه.

عدت من الغردقة وكلي لهفة للقاء حبيبتي. انقطاع وسائل الاتصال المباشرة بيننا تسبب لي في ارتباك كبير وقلق متصاعد.

لماذا تصر على البعد عني بمثل هذه الطريقة، كيف تفكر، بل كيف تتحمل البعد وعدم وجودي في تفاصيل يومها ؟!

قبل المرض لم يكن هذا مستساغًا أو مقبولًا منها، فلم تكن تمضي ساعة، إلا وكان هاتفي يهتز برسالة جديدة، رسالة تخبرني بمكانها، بماذا تفعل، بموعد مولد قصيدة جديدة.

رسالة تسألني فيها هل هذا الثوب مناسب للخروج، هل تناولت طعامك، هل تقود بسرعة، ماذا حدث اليوم في العمل، هل زال الخلاف بين الشركاء. والدة صديقتها وصال مريضة، أصبحت بخير، أمها تخبرها أنها

تخفي عنها شيئًا، هل تصارحها، إنها مرهقة جدًّا وترغب في النوم ولكنها تشتاق لي، لقد استيقظت، لقد نامت، لقد حلمت بي.

كانت متواجدة في كل لحظة، تعيش معي تفاصيل يومها، وأعيش معها تفاصيل يومي، كل لحظة تمر تقربنا أكثر، وتزيد من لهفتنا وعشقنا أكثر.

أين هي الآن ؟!.

هاتفها الذي لم يكن يكمل رنة واحدة قبل أن تجيب أصيب بالخرس، صوتها الذي كان يحي يني، لم أسمعه منذ لقا يا في الساقية، ملامحها الرقيقة التي أنهكها المرض حرمت من رؤيتها .

لا يمكن أن يكون هناك عذاب أكبر.

وبكل ما يموج بداخلي من لهفة وشوق وقلق، ذهبت إلى المنزل مباشرة فور وصولي القاهرة، ولكني لم أصعد إليه كما اعتدت دوما كي أطمئن قلب أمي كلما كنت في مهمة عمل خارج القاهرة، فلهفتي للاطمئنان على لبنى أبعدتني عن أداء هذا الواجب المقدس .

فلتسامحني أمي هذه المرة فما نمر به جميعًا ليس طبيعيًّا بأي حال من الأحوال، ولكني بالطبع هاتفتها لأطمئنها على عودتي على هاتفها المحمول، ولأعتذر لها عن عدم صعودي للمنزل عندما أحضرت سيارتي، وأخبرتها

أنني سأذهب إلى منزل لبنى لأطمئن عليها أولًا لأني قلق عليها وبشدة، وهنا جاءتني الصاعقة :

- لا داعي للذهاب لبنى ليست هناك.

شعرت بالهواء ينحبس في حلقي، والدم يغيض من وجهي، وبكل ما يموج بداخلي من توتر سألتها :

- أين لبنى يا أمي .. هل هي بخير ؟!.

وبكل ما يعتمل بداخلها من لوعة قالت :

- لبنى بخير يا بني، واليوم ستجري الجراحة، لقد دخلت غرفة العمليات منذ دقائق، وجعلتنا جميعًا نقسم ألا نخبرك كي تكون مفاجأة لك عند عودتك.

كتمت بداخلي ألف صرخة غاضبة وأنا أقطع الاتصال، وبكل جنون وشطط بدلت اتجاه السيارة نحو المستشفى، وأنا أصرخ في غضب :

- لن أسامحك يا لبنى ..لن أسامحك أبدًا. إن ما فعلتيه يا لبنى ليس تضحية، بل جرم كبير في حقي، لن أسامحك عليه.

مازالت لبنى على إصرارها بأن تحرمني من رفقتها حتى في مثل هذه اللحظات العصيبة التي تمر بها.

obeikandl.com

مازالت تصر على أن تخوض محنتها وحيدة .

أنا حبيبها، حبيبها الذي يجب أن يكون دون العالم كله بجوارها في هذه المحنة، هذا واجبي وحقي.

قطعت الطريق نحو المستشفي في سرعة وتهور، وقد تحول العالم في عيني إلى ضباب، وعلى بابها استقبلتني أمي التي ارتميت في أحضانها بمجرد أن لمحتها، ومن عيني تساقطت دموعي في غزاره على كتف تلك العزيزة التي أخذت تهون علي مصابي:

- اهدأ يا سامح وتماسك، وكن حسن الظن بالله، لبنى ستكون بخير وسنفرح جميعًا بشفائها.

نظرت نحو أمي في لوم، ثم تساءلت قائلًا :

- لماذا أخفيت عني أمرها يا أمي، لماذا تشتركي معها في هذا الجرم ؟.

تمالكت أمي دموعها بصعوبة قبل أن تجيب :

- كانت هذه هي رغبتها الوحيدة يا سامح، ولم أكن قادرة على مخالفتها في هذا الموقف الصعب، أنت لم ترَ حالتها لتحكم علينا وتحاكمنا.

قلت بعناد طفل، ولهفة عاشق :

- وهذا سبب كافٍ جدًّا لأكون بجوارها.

مسحت أمي على رأسي وضمتني لصدرها، كما كانت تفعل معي صغيرًا، وقالت بصوت مشفق حنون :

- قدر الله وما شاء فعل ، وها أنت هنا الآن، ونحن جميعًا هنا والله معنا، هيا جفف دموعك وتماسك، لا يمكن أن يراك أهلها على هذه الحالة، أنت سندهم الوحيد الآن .

سحقني هذا الموقف المفاجئ بقسوة، ولكنني تجاوبت مع منطق أمي وتمالكت نفسي، وأغلقت على أحزاني زنزانة قلبي وأنا أتبع أمي في أروقة المستشفى الكئيبة التي تموج برائحة المرض والمطهرات.

ثم كانت المفاجأة التي أثارت جنوني، وجعلت أعصابي تنفلت، وبغير وعي مني، وجدتني أجذب أمي من كم ردائها لأسألها بغضب وبصوت منفعل:

- ما الذي أتى بهذه المخلوقة إلى هنا، ما الذي تريده منا الآن ؟!.

قبضت أمي على يدي في قوة وهي تنظر نحو سلمى، التي كانت تقف بجوار والدة لبنى وكأنها من العائلة، وقالت بصوت حازم منخفض النبرات :

- ليس هذا وقته يا ولدي، تجاهلها وكأنها غير موجودة، ليس هذا وقت تصفية حسابات .

لو كانت النظرات تحرق لتحولت سلمى إلى تمثال من الفحم المحترق، وبصعوبة شديدة تجاهلتها وتجاهلت نظراتها التي كانت تحاول بها أن

تبعث لي رسالة ما، وأنا أسلم على والدة لبنى المنهارة، وأحتضن والدها الحزين .

طفح كرهي لسلمى على وجهي، وأنا أتخيلها بيني وبين نفسي قد أتت لتظهر شماتتها في لبنى، وإن كان ما لمحته على وجهها يظهر حزن حقيقي، وهو شيء عجيب وغير متوقع منها، ولم يشفع لها عندي.

نظرت نحوها بكراهية فأشاحت بوجهها عني في لوم، وبدون وعي وقفت للحظات أتأمل والدي لبنى، وقلبي يعتصره الحزن، وموجة عارمة من اليأس تغرقني في ذعر خفي.

كم أشفق عليهما، وعلى شيبتهما، وعلى نفسي من هذا الموقف العصيب، هما مهددان بعد كل هذا العمر بفقد ابنتهما الوحيدة، التي رسما لها من الأحلام ما يتبدد الآن .

ما أبشع الانتظار!.

الدقائق تمضي كأنها أعوام، والقلوب لم تتوقف لحظة عن الدعاء، لقد دمر هذا الموقف أعصابي تمامًا.

ونظرات سلمى المتظاهرة بالدعم، كانت تثير جنوني.

كيف تعلق قلبي وتعلقت روحي يومًا بهذه الإنسانة اللزجة الكريهة؟.

ظل وجودها ضاغطًا على روحي بطريقة مرهقة، وكنت أهرب بكراهيتي لها من كل مشاعر الخوف والقلق التي سكنت روحي، فكنت أفكر في لبنى وأعود لأدفن غضبي في سلمى .

وعندما لم أستطع الصمود أكثر، لم أجد ملجأ إلا في الصلاة، والعودة لخالقي والذي يملك وحده اليد الحانية الرفيقة التي لن تكسر قلوبنا .

توضأت، ثم عبرت من جوار أمي متوجهًا صوب تلك الغرفة الجانبية التي تستخدم لاستراحة، وفي هذه اللحظة سمعت صوتها الملتاع والمتضرع، وهي تدعو بكل ما تملك من مخاوف :

- طبطب علينا يا رب .

هزني الدعاء جدًا، وجعل عقلي يسرح في ملكوت الله، كم نحن بحاجة إلى هذه اللمسة الإلهية الطيبة.

صليت العصر، وصلاة الخوف، ثم غلبني التأثر فأخذت أبكي وأدعو لها .

لابد أن الزمن توقف، فالجو أصبح باردًا، والسماء اكفهرت، واغتصب صفاءها تلك الغيوم السوداء الكئيبة التي تجثم على كل شيء، وعقارب الساعة نفسها بدا وكأنها تخشى المرور.

الوقت لا يمضي عندما ترغب في مروره.

لا شيء يخضع لمشيئة الإنسان عندما يكون في محنة.

عبثية هي تلك الحياة في تصاريفها، وقاسية في أحكامها، وكريمة في أوجاعها، لن ترفق بنا يومًا إلا وإن كانت تعد لنا في عالم الغيب كارثة .

شعرت بعد الصلاة والبكاء ببعض الراحة، وأصبحت قادرًا إلى حد ما على مواجهة الموقف، وإن كنت لا أعرف لكم من الوقت سأصمد .

شعرت بقرصة جوع في أحشائي، وأيقنت دون شك أنها حالة الجميع، علي أن أقوم بواجبي نحوهم مهما كانت الظروف.

كنت أدرك أنني لن أضع في فمي لقمة واحدة حتى تخرج لبنى متعافية من غرفة العمليات، وبرغم ذلك خرجت من المستشفى وعدت لهم بعد نصف ساعة وقد أحضرت بعض الشطائر والعصائر، ولكن أيًّا منا لم يتناول منها قضمة واحدة، اللهم إلا سلمى التي تناولت علبة عصير، وأظهرت تبرمها لاحتوائه على السكر، ولم يضغط أي منا على الآخر لتناول الشطائر، فالأرواح الممتلئة بالحزن تعاف الطعام .

وفي أثناء جلوسي فوق أحد المقاعد غائبًا في ملكوت لبنى، أدعو لها ولنفسي، وصلت وصال إلى المستشفى شاحبة الوجه، مرهقة الملامح، وعلى وجهها أثار دموع جففتها على عجل .

زاد الحزن وصال جمالًا فوق جمالها، فبدت كملاك حزين شارد.

وبعد أن سلمت على الجميع وواست الأم المنهارة القلقة، اقتربت مني وتحدثت بصوتها الهادئ العذب الحزين:

- حمدً ا لله على سلامتك يا سامح.

أجبتها بصوت مختنق لم يكف عن الدعاء للبنى:

- سلمك الله يا وصال.. لماذا لم تهاتفيني، لماذا لم تخبريني بموعد الجراحة، رقم هاتفي معك .. رقم هاتفي معك يا وصال .

نبتت الدموع في مقلتيها، وقالت بصوت مضطرب:

- كانت هذه رغبتها يا سامح، ولم أكن لأخون عهدها إنها أكثر من أختي، كما أن كل شيء قد تم بسرعة بعد أن تدهورت حالتها، كانت منتهية نفسيًا وجسديًا، ولم يكن هناك من يستطع منعها أو لومها على قرارها .

نظرت لها في لوم، ثم قلت بصوت يملؤه الضيق :

- حصل خير يا وصال ..المهم أن تنتهي جراحتها على خير.

مدت وصال يدها لحقيبتها، وأخرجت لفافة في حجم كتاب متوسط الحجم ملفوفة بعناية ومعطرة بعطر لبنى المفضل، ناولتها لي وقالت :

- إن شاء الله ستعود لنا بالسلامة، وسنفرح بكم وبأولادكم وأحفادكم أيضًا.

هززت رأسي في يأس، ثم نظرت نحو اللفافة بتعجب وقلت متسائلًا :

- ما هذه اللفافة يا وصال ؟!.

نظرت نحوي وصال نظرة من لا تملك الإجابة على السؤال وقالت :

- هذا ما تركته لك لبنى معي، وأوصتني أن أمنحها لك فور أن أراك، ودون تأخير،لذلك لم تغادر حقيبتي حتى قابلتك الآن.

ناولتني وصال اللفافة، ثم انتقلت من جواري إلى جوار والدة لبنى وانهمكت معها في حديث خافت، في حين أغمضت عيني كي أتجاهل وجود تلك اللزجة سلمى التي ظهرت غيرتها وهي تطلع إلى وصال التي تفوقها جمالًا وحوارنا الهامس، وأخذت أدعو للبنى بكل ما أعرفه من أدعية، وبكل ما بداخلي من خوف .

وفي ركن منعزل فضضت اللفافة، فوجدت بداخلها بلوك نوت ذات غلاف وردي حافل بالقلوب مختلفة الأحجام، وما أن فتحتها حتى أدركت كنهها، كانت مذكرات لبنى، ولا أعرف لماذا انقبض قلبي، وهاجت بروحي المتشائمة أفكار أكثر سوداوية من قلب سلمى .

وخلال لحظات كنت أسير كلماتها.

وبرغم وجودها في غيبوبتها الصناعية، تبحث عن أمل وسط جراحها النازفة ومبضع الجراح الذي يحاول صنع المعجزة، إلا أنها اختطفتني حتى من روحي.

فارتشفت كلماتها في نهم .ورحلت لدنيا أخرى، خطتها من أجلي بيديها.

obeikandl.com

obeikandl.com

لبنى

obeikandl.com

obeikandl.com

-11-

من واقع مذكرات لبنى.

"حبيبي سامح ".

اسمح لي أن أناجيك بهذا اللقب الرائع، فأنا أشعر أن لي كل الحق في أن أصفك به، رغم أنه لم يمضي على لقائنا سوى ساعات معدودة، وهذا ليس دربًا من الجنون أو فورة مشاعر مفاجئة، ولا شحنة عاطفية مكبوتة تحررك بلقائك، إنما هو شعوري العاصف بالانتماء إليك، والذي ولد في كياني فور أن لمسني دفئك، شعور العشق الصادق الذي لن يتبدل نحوك.

أعرف أنك لن تقرأ هذه المذكرات في وقت قريب، وربما إلى الأبد لو كان إحساسي يخدعني، أو أنني فشلت في قراءة عينيك، أو بالغت في تقدير اهتمامك الزائد نحوي اليوم.

أنا لست متشائمة ولكني واقعية.

أدرك أن السعادة لا تهدى للقلوب بهذه السهولة، ولن أتمادى في أحلامي، وأطلب أن تستمر أكثر من الوقت الذي جمعنا سويًا.

ولن أخفي عليك أنني وبكل ما يعصف بعالمي، أدعو الله أن يكون لقا ؤنا بداية، وليس نهاية لواقع أتمنى أن يكون أكثر من مجرد ذكرى سعيدة، ربما لن تتكرر.

لقد أعتدت الأحزان فلم تعد تثير رهبتي. السعادة المفاج ئة هي ما تفزعني وتثير روعي؛ فهي كما تأتي فجأة تختفي فجأة، ولا يتبقى من أثرها إلا الندم والحسرة.

ولأنك سعادة خالصة، فأنا أخشى أن أثمل منها لساعات، ثم أحرم منها باقي عمري.

لذلك أسمح لي يا حبيبي أن أكتب تفاصيل ذلك اليوم المتفرد في نكهته ؛ ليكون مرجعيتي في أيام الحزن والوحشة، وما أكثرها، فأنت أصبحت في وقت قياسي أقرب إلي من حبل الوريد بشكل أعجز عن استيعابه ولجمه.

لم أتعود من قبل على كتابة المذكرات، ولكن ما مر بي في هذا اليوم بالذات يجبرني على إدمان هذه العادة التي تتوا فق كثيرًا مع ميولي، ومع عشقي للحبر والورق.

سأكتب مذكراتي ليوم واحد فقط؛ أسجل فيه ذلك الحدث العظيم الذي هز أرجائي و زلزل كياني، وقوض أعمدة خجلي، وهتك حجبي، وأنبت في أعماقي زهور الليلاك العاشقة.

أنا لست مجنونة، أو من أولئك المتمردات اللاتي يكسرن كل التابوهات عندما تخفق قلوبهن لمجرد إبراز شخصية لا يملكونها، أنا فقط أحببتك دون أعي، ودون أن أدرك، فتملكتني شجاعة العشاق ورعونتهم، ولم يعترض قلبي على سلوكي أو اندفاعي؛ لأنه وثق بك.

أنت حالة استثنائية تستفز مشاعري وعواطفي، وتعيد صهري وتشكيلي، وتبث في عروقي لذة الاشتهاء، واكتشاف الجانب الآخر من الحياة.

شعوري نحوك قاهر وغالب ومسيطر، ولأني أدرك تمامًا أنك كالأحلام، عشتك بكل جنونها وثوريتها.

فلا تتعجب عندما تتعامل معي، لو قدر لنا لقاء آخر، ورأيت لبنى أخرى غير التي كانت معك، فأمام ابتسامتك تهاوت كل دفاعاتي، وقهرت رجولتك دماء حيائي، وملك لطفك ناصيتي واهتمامي.

فهناك شيء ما يقودني نحوك لا تفسير له، وفي نفس الوقت يحمل كل التفسيرات وكل المبررات التي تجعلني امرأة أخرى لا تخجل من مبادلتك العشق، والتعبير عنه ونحته بين حنايا الورق .

لقد فتنت بك يا حبيبي.

والمرأة التي تفتن تصبح أسيرة ب إرادتها، تستمتع باقتحام قلبها، وقهر عنادها، وإجبارها على الاستسلام لجبروت النبض.

وأنا لن أرفض قيدك، لو حاصرتني بحبك ما تبقى لي من عمر.

أنا لا أرى في جرأتي عارًا ولا قلة حياء، فأنت كل عالمي، ولم أمارس تلك الجرأة على أحد من قبل ولن أمارسها، فأنت لن تتكرر، وأنا متيقنة أنك لي مهما كان مكانك، سواء كنت بجواري، أو ساكنًا روح الورق .

أنت لي، لأنه لن يصلح شيء آخر، مع تلك المجنونة التي أطلقتها من عقالها؛ لتتعلق بأستار عينيك.

لقد قسمتني لاثنتين تهيمان بك عشقًا، وكأنه لا تكفي لبنى بشخصيتها المعلنة لتحتوي شلالات فتنتك ورجولتك، ودفئك، فنبذت روحي جزء منها يحمل كل جنوني وعاطفتي، وثورتي.

لقد أطلقت سراح تلك المجهولة التي تعرفك أكثر مني، فلا تنتظر إلا الجنون.

لقد فجرت النبع باهتمامك، فلا تتوقع أن يجف قبل أن ترتشفه حتى الثمالة، ويصير جزء من تكوينك.

لقد صرت ملكي بسحر هذا اليوم، وصرت ملكك حتى لو نسيتني، أو كنت مجرد فورة مشاعر عابرة ستتجاوزها، وهذا ليس تمني بقدر ما هو بصيرة العاشقة التي جن جنونها بقربك .

أحببتك يا سامح؛ لأنك أصبحت تملأني، وتعطرني، وتحرق شغاف قلب تلك المجنونة التي اكتشفتها بأعماقي .

سخي أنت في احتوائك، جشعة أنا في أمنياتي التي تتلخص في امتلاكك.

ومهما كتبت أو وصفت لن تدرك أنت، ما أعيشه الآن. كل حرف أكتبه لك تشبع بجنوني، وحنيني، واشتياقي، ودهشتي، وانهاري وحيائي، ورغبتي، واشتهائي، وصُنع من رماد ذلك النجم الذي يحترق في أعماقي.

أنا ثملة بك، وكل شيء يغريني للمزيد .

لذلك لن يمكن لأحد أن يصف مقدار سعادتي وأنا أخط لك هذه الكلمات بين شهقات الورق والتهاب الحبر.

طريقة كلاسيكية هي، ولكنها طريقتي الوحيد للتعبير عن انهاري بك، ولعلها تحمل في طياتها رسالة كامنة سيلتقطها ذلك المارد الساكن عينيك، فتفك طلاسم أحد أهم أسراري، هو عشقي لكل ما هو قديم ، وعتيق، ومشبع برائحة الماضي .

أنا امرأة من زمن سحيق، احتفظت ببكارة قلبها من أجلك، وهذا هو سري الثاني.

وأعترف لك أنك فضضت بكارة هذا القلب، بل بثثت في أوردتي ألف طفل من صلب عشقك .

مجنونة بك يا حبيبي، ولكني سعيدة، تلك السعادة التي جعلت هذا اليوم عمر بأكمله .

هل تعرف يا حبيبي أن هذا اليوم لم يكن من أسعد أيامي قبل أن ألقاك، بل كان يومًا ثقيلًا، وباردًا.

وتخيل أني كدت أتراجع عن الذهاب إلى الإسكندرية يومها، لألف سبب، ودفعتني الأقدار دفعًا نحوك.

ففي اليوم السابق ليومنا هذا، وما أجمل أن يكون لنا شيء مشترك، حتى ولو كان من ضرب الأمنيات المستحيلة.

ففي هذا اليوم جاءتني رسالة نصية من وصال على "الواتس أب" تسوق لي الخبر التعيس:

- " حبيبتي لبنى لن أستطيع أن أكون معك غدًا في حفل التوقيع، الطبيب لم يسمح بخروج أمي من المستشفى اليوم، وأخي أحمد أصيب أحد أطفاله بالحمى، فلن تستطع زوجته العناية بأمي في غيابي، سامحيني ".

لا أعرف لماذا انقبض قلبي بهذا الشكل العنيف، وكأنها أخبرتني أننا لن نلتقي مجددًا، حتى إنني وضعت هاتفي المحمول بجواري لعدة ثوانٍ وعقلي عاجز تمامًا عن التفكير.

كان رد فعلي مبالغًا فيه، أدرك هذا يا سامح، ولم يدهشني ثانية واحدة.

إن مشاعري نحو وصال متطرفة تمامًا، وهو شيء لا يقلقني أو يضايقني أبدًا؛ لأنها تستحق ما أكنه لها وأكثر. لا أعرف إن كانت لي أخت هل كنت سأحبها مثلها، ويتعلق قلبي مثلما تعلق بها أم لا .

هناك صداقة تتغلب على رابطة الدم، وصداقتي لوصال، كانت أشد قوة من أي رابطة أخرى.

كنت أريدها بجواري في هذا اليوم بالذات، إنها المرة الأولى التي سأسافر فيها وحدي إلى أي مكان خارج القاهرة، مع قلقي الشديد من الندوات وطقوس حفلات التوقيع التي توترني تمامًا. ورهبتي من لقاء القراء والمعجبين الذين لا أتوقع حضورهم من الأساس؛ بعد تلك الليلة العاصفة، وغرق الشوارع من جراء أمطار أمس، وتواصل موجة البرد وحدتها .

كان غيابها حدثًا استثنائيًا، فلم تتخلف وصال عن مؤازرتي والتواجد بقربي في أي حدث له قيمة في حياتي من قبل، وعلي أن أواجه كل شيء وحدي.

كنا كالظل كل منا يتشبث بأطراف ثوب صاحبه، واليوم فارق الظل الجسد؛ ليكسر فرحتي ويتركني نهبًا للأفكار.

لا أعرف كيف تمالكت نفسي بصعوبة، ودموعي تكاد تفر من عيني، وكتبت:

- " شفا الله أمك و ابن أخيك، لو أنكِ في حاجة لوجودي، سألغي الندوة وحفل التوقيع، وسآتي لأكون بجوارك ".

وكأنها كانت تتوقع الرد، جاءت إجابتها السريعة المشجعة:

-" غدًا يومك ولا يمكن أن تتخلفي عنه.. اذهبي وافرحي، وقلبي سيكون معك ، أمي ستكون بخير إن شاء الله، فقط عليك بالدعاء لها في صلاة الفجر؛ لأن الدعاء في هذا الوقت مقبول، وعند عودتك لي سيكون حفل توقيع خاص بنا، يكفي وقفتك معي بالأمس".

لم أستطع الرد بأكثر من " إن شاء الله "، ثم نحيت هاتفي المحمول جانبًا، وغرقت في أفكار كئيبة لا أول لها ولا آخر، حتى غلبني النوم الذي واجهت من خلاله ألف كابوس كان القاسم المشترك بينهم، البرد، والوحدة.

ولولا أن دثرتني أمي أثناء نومي بالأغطية الثقيلة لربما أصبت بنزلة برد قوية.

لا أعرف كيف مضى الليل يا سامح، ولا كيف استيقظت ولا لأي مثير استجابت روحي ولبى جسدي ففتحت عيني، وأذناي تلتقطان صوت وصال العذب كصدى بعيد، ورائحة قهوتها المحوجة تجتاح أنفي وكياني.

لوهلة ظننت أنني أحلم، وأن الصباح مازال بعيدًا، فجسدي لم يحظى بعد بالراحة المنشودة، ووصال مع مرض أمها لا يمكن أن تكون هنا.

وبنظرات مشوشة تابعتها وهي تضع قدحي القهوة اللذان يتصاعد منهما البخار بجوار الفراش، حتى أيقنت أن وجودها في غرفتي واقع حقيقي وملموس وليس وهما، فنفضت الكسل عن جسدي وانقضضت عليها وعانقتها، وعيناي تذرفان مزيج من دموع الفرح والامتنان، مما أجبرها على التساؤل في قلق :

- " لماذا تبكي ذا الحين ؟ ".

قالتها وصال بلهجتها المميزة، فضممتها أكثر إلى صدري، وكأنني أستمد منها الشجاعة والدفء، وقلت مداعبة كعادتي كي أخفف من وقع الموقف:

- ذا الحين يا ابنة عمي رأفت .

دفعتني برفق لأخرج من حضنها الدافئ المعطر لأواجهها، وهي تبتسم في رقة جعلتها أشبه بملاك مرهق يشع جاذبية، قبل أن تقول :

- المهم يا شقية..لا أريد لهذه الروح أن تغيب عنك اليوم..لقد انتهزت فرصة عودتي إلى المنزل لأحضر لأمي بعض الأشياء التي تحتاجها، وعرجت عليك لأنتقي معك الثياب التي ستقابلين بها جمهورك لأول مرة في

الإسكندرية، لا يمكن ألا أضع لمستي على يومك، لو كان نجاحك بفضل موهبتك، فتألقك سيكون بفضلي".

ابتسمت لمزحتها، وأنا أسألها ألف سؤال لأطمئن على حالة أمها، وهي تجيبني بأن الأمور ستمر على خير فقد طمأنها الأطباء، وحثتني على عدم الإكثار من الأسئلة لنكسب بعض الوقت.

نهضت بكل حماس وأنا أجفف أثار دموعي من على وجنتي وأغتصب رشفتين من القهوة الساخنة التي منحتني نشاطًا مضاعفًا.

وقهوة وصال يا سامح أشهد لها بأنها مشروب من الجنة، فوصال عندما تعشق شيئًا تمنحه جزء من روحها الشفافة، ووصال كانت تعشقني وتعشق القهوة.

وصال نفسها كالقهوة تعدل المزاج وتريح القلب .

شرعت معها في انتقاء الثياب، وقد أحسست وكأنما روحي ردت إلي، فبوجود وصال أدركت أن كل شيء سيكون بخير.

بالطبع كان اختيار مسار إطلاق جديد لسفينة فضاء متوجهة إلى المريخ، أهون من اختيارنا للثياب التي تناسب اليوم.

بل وأعتقد أن المسار الجديد لم يكن ليستغرق كل هذا الوقت لتحديده، وفي النهاية استقرينا على الطاقم المناسب والإكسسوارات التي تناسبه،

والعطر، وطلاء الأظافر، والحذاء، وبعد نظرة شاملة لما اخترناه، ابتسمت لي وصال وقبلتني وهي تشملني بنظرة رضاء، لتودعني مسرعة كي تنهي ما يؤرقها من أعمال.

كم أحبها وأحب جنونها.

فمن نعم الله على الفتاة أن يكون لها صديقة كوصال، شخصية لا مثيل لها في الطيبة والرقي والثقافة، كما أنها خفيفة الظل، وذات جمال نادر ولهجة آسرة ، وفوق كل هذا تمتلك كبرياء الملكات وخفتهم وأناقتهم.

لم يكن حبي لها عاديًا يا سامح، وربما لو كنت ذكرًا لحاربت العالم كله من أجل أن أحظى بتلك الحورية التي غادرت الجنة لتسكن الأرض، حتى إنني ذات مرة أخبرتها أنها الوحيدة في الكون التي لن أمانع لو تزوجها زوجي مادامت ستظل بقربي، وربما أغار عليها منه .

وعندما أخبرتها ذات يوم أنها هي الجمال الوحيد الذي سيظل في حياتي، وسأصحب عبقه معي إلى القبر، اتهمتني بالجنون.

وأنا من داخلي أؤمن أن نصف النساء يكبتون بأعماقهم جنونًا خالصًا لا يطمره إلا الأعراف والتقاليد والعادات التي لا تفنى وتستحدث من عدم، وأنه لو تركوا على أعنتهم، لصارت الدنيا مزيجًا من الرقصات، والأغاني، وجبال الشيكولاته، والعطور، والألوان .

ولا يأتي ذكر الجمال أو الجنون أو الحنين، إلا وكانت وصال هي همزة الوصل مع هذا العالم الخيالي المثالي، حيث كل شيء متطرف وجامح وممكن.

كان علي أن أرد لها الجميل، وأطمئن بنفسي على حالة والدتها، والتي أعتبرها أمي الثانية فربما تحتاجني بجوارها، ولا تريد بكبريائها أن تفسد يومي.

وكانت المفاج أة التي أعددتها لها، أنني بعد ساعتين كنت معها في المستشفى، أتابع حالة والدتها التي تتعافى من أزمة قلبية عارضة. وكانت ابتسامتها الرائقة آخر ما رأيته قبل أن أغادر المستشفى لألحق بالقطار الذاهب إلى الإسكندرية حيث الندوة، وحفل التوقيع.

قطارنا يا حبيبي..

هل تُراك تبتسم الآن لو كنت تقرأ هذه الكلمات، وهل أنا بجوارك أداعب شعرك بأناملي وابتسم بخجل.

أتمنى ذلك.

وللأسف يا سامح مع كل هذه المشاعر الصادقة من وصال، طغى على روحي شعور ثقيل بالكدر وبكوني وحيدة.. بل وحيدة جدًّا.

وعلى وجهي انحفرت ملامح حزن عميق لم تستطع أن تزيح أثره ابتسامة وصال، ودعاء أمها لي بالسداد والتوفيق.

وبرغم رداءة الطقس، لم أكن أشعر بالبرد ولا بالريح العاصفة التي بدأت تلف كل شيء، فبداخلي بركان عاصف من التوتر، أو كما يقول المتنبي:

- وأنا على قلق وكأن الريح تحتي .

كانت ريح الحزن الذي لم أستطع قهرها، تحتي وفوقي وفي كل اتجاه.

وفي لحظة ضيق رمقت السماء المكفهرة، والتي كانت تشبهني وتشبه يومي بقتامتها وسحبها الكئيبة، وغرقت في ذكريات أشد قتامة.

وذكرني مشهد السماء المقبض بأخي كريم الذي فقدته في طفولتي، في يوم مشابه.

كان كريم ككل شيء جميل، قصير العمر. فمضي كحلم، وظلت روحي تتوق إليه ولعودته المستحيلة، وتنتظرها كل شتاء.

ومضت طفولتي وأنا أتساءل كيف يذهب الأطفال إلى السماء، وهل السماء جميلة إلى الحد الذي يجعلهم يتركون على الأرض كل من يهتمون لأمرهم، دون أن يشتاقوا إليهم ولو لدقائق قصيرة يزورنهم فيها.

كان حزني على أخي أول صدمة فجرت بداخلي ينبوع الشعر المقدس، ربما كان في البداية ركيكًا، ولكن مع الوقت أصبح أكثر تماسكًا، حتى إنه نال استحسان العديدين على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك، وشجع إحدى دور النشر على جمعه وطبعه.

أهديته بالطبع لأخي، وأبي، وأمي، ووصال. ملاكي الحارس وقارئتي الأولي، وناقدتي المثقفة ثاقبة الرؤية والإحساس .

لم تمل وصال لحظة واحدة من تشجيعي، وتكرار أن ما أكتبه يمس روحها، وعليَّ أن أثق في نفسي أكثر، وهو ما كان يقلقني أكثر وأكثر ويدفعني للعمل والإجادة أكثر، فإن لم يكن الشعر يمس الروح، فلا داعي للشعر من الأساس.

أوقن دون لحظة شك واحدة أن وصال قد تجاملني في أشياء كثيرة، ولكنها لن تفعل مع قصائدي .

لا يمكن أن تخون الكلمات كما أخبرتني.

أخرجني من ضجيج أفكاري وذكرياتي صوت نفير القطار، الذي كان يشبه يومها نعيب الغربان فانقبض قلبي، حتى إنني فكرت في التراجع وحجتي جاهزة في التعلل برداءة الطقس وصعوبة وطول المشوار، ولكني في النهاية

لم أرغب في خذلان من سيهتم في الحضور من القراء والأصدقاء، فتوكلت على الله ونويت السفر.

هل أتحدث كثيرًا يا سامح، هل أزعجتك كل تلك التفاصيل، أتمنى أن تكون إجابتك بالنفي، فمازال في اليوم الكثير، ومازلت مستمتعة بصحبتك حتى ولو طيف بين مروج الورق .

هل ستقلب الصفحة أم مللت ؟!. لا أعتقد أنك ستمل مني أو من أي شيء يخصني يومًا، لا يمكن أن تثير غضب تلك المجنونة التي تشاركني في حبك .

obeikandl.com

-12-

"حبيبي سامح ".

لا أعرف لماذا في هذا اليوم بالذات حجزت للسفر بالقطار المكيف، ولم أستقل السوبرجيت كما اعتدت دومًا كلما نويت السفر إلى الإسكندرية.

هل كانت مصادفة أم كنت أتبع قدري بخطوات عمياء ؟!.

والإجابة هي الاثنان يا سامح، فللصدف ترتيبات قدرية لا ندركها، لأننا لو أدركناها ستفسد، كما يفسد كل شيء نحيله لأرادتنا. تلك الترتيبات التي تعيد تنسيق أوراق حياتنا بعد سنوات من الجمود أو الفوضى.

كنت أجمل صدفة تعمد القدر وضعها في طريقي .

توقف القطار أمامي فتقطعت أنفاسي وأنا بين إحجام وقبول، وفي النهاية تبعت خُطى المسافرين، وركبت القطار لا يشد بأزري إلا رسائل أصدقائي السكندريين، الذين ينتظرون لقائي للمرة الأولى في مدينة الإسكندر الأكبر.

كان مقعدي كما هو موضح في تذكرتي لا يقابل مقعدك، بل هو خلفك تمامًا ولولا ذلك الرجل الذي غادر مبكرًا مع أسرته، وضيقي من الطفل السمج الذي كانت تحمله تلك السيدة التي كانت تجلس بجواري، لما

بدلت مقعدي وقدمت إلى مقعدك، ربما لم نكن لنلتقي أبدًا.. ولكنه القدر..

قدري السعيد.

كنت أنت مستغرقًا كطالب مجد في مراجعة مخططات كثيرة مزدحمة بالأرقام والتفاصيل يحتويها ملف أسود ضخم.

بجوار الشباك جلست وعيناي معلقتان بالسحب التي أخذت تفرغ حملها على شكل أمطار عنيفة، وعقلي معلق بحفل التوقيع وبوصال وبوالدي الذي منعه العمل من أن يكون بجواري، و إصراري على عدم قدومه لتكون حفلة التوقيع الأولى التي أحضرها منفردة .

لا أعرف لماذا شعرت فجأة بالبرودة، ولوهلة أدركت أن الأمر نفسيًا، فقررت أن أكمل قصيدة جديدة كنت قد بدأتها في وقت سابق.

لم أكن قد رأيت ملامحك جيدًا حتى هذه اللحظة، ولكن عطرك كان يغزوني، وربما هو من أيقظ روحي من سباتها.

ومع اندماجي في الكتابة انتابني شعور مريب بأن هناك من يتابعني أو يتلصص علي وتوقعت أن يكون أنت..

هل توقعت أم تمنيت الإجابة معروفة بالطبع، ولأنني لم أكن أرغب في الخروج من الحالة التي وصلت إليها روحي من تماهي مع القصيدة، قررت

أن أتجاهل ذلك الشعور الممض، وأسير على دربك في الاندماج مع الكلمات، كما تندمج أنت في ملكوت أوراقك.

كنت تقودني برغم كل شيء، وبالفعل صرعتني الكلمات، و اعتصرت عقلي، وتكاملت مع مشاعري، وأنهيت القصيدة، وأنا أشعر بأن روحي ترتج بداخل جسدي بنشوى لا حدود لها .

ما كان ينغص علي إحساسي، هو وجود ذلك الشخص اللزج ثقيل الظل الذي كان يحاول اقتحام خصوصيتي بنظراته الفجة الوقحة، بعد أن ارتقى للقطار في محطة لاحقة هو وزوجته البدينة.

هل تذكره يا حبيبي، لقد أخبرتني يومها أن سلوكه المستفز كان يثير غضبك بشدة، وللأسف هو من جعلني أفقد دقائق ثمينة كان يمكن أن نمضيها معًا، لو كانت الأجواء أقل عدائية.

تجاهلته وكل خلية في جسدي تشجعني على القيام لصفع هكي يغض بصره، ويحترم خصوصيتي، ووجود زوجته في الجوار.

وحرصًا مني على عدم الاحتكاك به ولو بالنظرات، اندمجت في مراجعة القصيدة وأضفت إليها بعض الإضافات قبل أن أجبر نفسي على القراءة في ديوان للشاعر الرائع فاروق جويدة، وأنا أدعو ألا يكون ذلك الوقح

مسافرًا إلى الإسكندرية ؛ كي لا يشحن روحي بما يفوق طاقتها من مشاعر سلبية، كفاني ما أمر به من سوء حظ.

ولأن الدعاء يستجاب أسرع أثناء هطول المطر؛ استجاب الله لي وغادر ذلك الشخص الوقح وزوجته القطار في محطة تالية، ليعود لروحي هدوؤها برغم تلك النظرة الحقيرة التي رمقني بها قبل أن يغادر القطار، وساعتها لمحتك وأنت تحاول أن تكبح جماح نظراتك التي كانت تلتهمني التهامًا.

لقد مسك إله العشق بعصاته مبكرًا، وكنت أنا غارقة في عالمي الفوضوي المضطرب.

وفي هذه اللحظة المربكة شديدة التفرد، تأملتك دون أن تنتبه لي، وساعتها نبض قلبي بقوة، وصرخت جوارحي متفاجئة، وكساني الروع، فدفنت توتري في الديوان الذي لم أعد قادرة على استيعاب أي من كلماته.

وسيم أنت يا حبيبي لدرجة لا تتحملها عيناي اللتان عشقتاك من اللحظة الأولى .

كنت أمر بحالة عجيبة لم أشعر بها من قبل، فبين نفوري من الوقح الذي غادر منذ لحظات، وتوتري من نظراتك الملتهبة، وبين قلقي من حفلة التوقيع المتوقعة كانت روحي تسحق.

لقد استدرجني القدر نحو بحرك الذي لا قرار له، وأمرني أن أقفز دون طوق نجاة، وبحكمتي الوليدة أدركت أن النجاة في الغرق، وأن أمنياتي كلها تتجسد في ملامحك الرجولية المستنفرة.

كانت اللحظة التي فاجأتني فيها لبنى المتمردة، ولكني كبحت جماحها بصعوبة وأنا أتنفس عطرك وأتشرب وجودك في حذر، وفي النهاية قبضت على الديوان في يدي، و أدعيت الشرود وأنا أتأملك بطرف خفي، حتى توقف القطار توقف مفاجئ عنيف وسقط الديوان من يدي، وساعتها تبدل كل شيء، وجرت الأحداث بسرعة لم أتوقعها أو أتوقع رد فعلها على نفسي.

هل كانت الأقدار التي أسقطت الديوان أم لبنى الشقية؟.

سقط الديوان من يدي فانتفضت أنت من مكانك لتل ـقطه أصابعك وتناوله لي. فالتقت عينانا، وتلامست أصابعنا، لينفجر بأحشائي بركان لاهب من المشاعر، جعل جسدي يرتج من الأعماق، والخجل يتبعثر في

أروقتي، حتى إنني أشحت عنك لأول وهلة، ولبنى الأخرى تدفعني دفعًا نحوك.

فقد قرأت تلك المتمردة، ما عجزت أنا عن قراءته في سجلات عينيك مع انسحاقي وتبعثري، ولم ترغب هي في إضاعة المزيد من الوقت.

وليتني أنصت إليها، وامتطيت جواد جنونها، ومنحت للريح ما تبقى من تعقلي، وأطلقت العنان لمشاعري .

ولكن قيود المجتمع كانت تمنعني، فعليك أنت وحدك أن تبدأ.

أن تدق أول مسمار في سفينة أيامنا القادمة، أن تزرع نبتتك في بستان الهوى، عليك أن تن ال شرف المبادرة، حتى ولو كان ما يصرعني عشق حقيقي، وما يراودك بعض رغبة أو إعجاب.

كنت أنا لبنى العجولة الخجولة، ولم تتأخر أنت عن فتح نوافذ روحي والتسلل لعقر قلبي برجولتك ونظراتك .

تناولت منك الديوان في تهيب، وكنت أنت تنتظر لحظة مماثلة لتتشبث بها، ومن صوتك أدركت أنك تستدعي شجاعة غائبة لتمد جسور التواصل بيننا.

وكنت أراك وقلبي يخفق تبذل مجهودًا كبيرًا لانتقاء الكلمات المناسبة التي لا تنفرني منك، وهو شيء أسعدني كثيرًا. ومنح للبنى الأخرى كل الحق لتعتلي دفة الوقت.

وبالطبع لم أترك لها الحبل على الغارب.

فبرغم مظهرك المطمئن وأناقتك، فقد كنت في النهاية غريب عني، ولم تمضي على تجربة ذلك الوقح إلا دقائق معدودة، فلم تتخلص روحي بعد بسببها من مشاعرها السلبية.

سيطرت على فورة مشاعري بصعوبة، وتركتك تستدرجني إلى براح روحك، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أتباسط معك في الحديث، وقلبي منبهر من تلك الدفقة المتفجرة من المشاعر التي اجتاحتني وحاصرتني وجعلتني أتحول لطفلة عنيدة، لن تسمح للعيد المضي دون أن تحصل على نصيبها منه .

عرفتني باسمك ومهنتك التي كانت المخططات الموجودة أمامك خير دليل عليها، ومن طريقة حديثك ونظراتك، أدركت كم أنت مثقف ومحترم ومن أصل طيب وتفوح بالرجولة.

ولا أعرف كيف واتتني الجرأة لأمنحك ديواني الأخير، وأعرض عليك حضور حفل التوقيع، وعيناي تحتويان كل نظراتك المندهشة، والتي

تقول ما يعجز اللسان عن ذكره والتصريح به، كنت لبنى المراهقة التي فاجأها أن قلبها مازال قادرًا على النبض، وأن هناك ما يسمى العشق من أول نظرة.

الشيء المدهش أكثر هو رد فعلي عندما بدأت بصوت مسموع متعمد تقرأ إحدى قصائدي. كنت ماكرًا جدًّا يا حبيبي في انتقاء القصيدة، وماكرًا أكثر في استدراجي لأتنفس جزء مما تتخبط فيه روحك.

كنت أستمع إليك وأنت تبث الحياة في أوصال القصيدة بصوتك الرجولي الخشن، وروحي تسحب مني وتغادر إلى عالم خرافي تصنعه نغمات صوتك الشجية.

كنت أتأمل انفعالك وشيء غامض يعبث في أقفال روحي ويفضها، وللمرة الأولى منذ ولِدت على يديك كانت لبنى المتمردة تقف خاشعة لتنصت، ثم تنازعتني لتكمل القصيدة من بعدك، ولكني قهرتها فأكلتني الكلمات، وتصاعد من أعماقي صوت صارخ يريد أن يخبرك، بأنني على استعداد تام، ليس لمشاركتك القصيدة فحسب بل مشاركته ما تبقى لي من عمر.

دقائق ووصل القطار لمحطة سيدي جابر فأجبرت نفسي على المغادرة للقاء من ينتظرني من أصدقائي على رصيفها، وروحي تكاد تفارقني لأنني

سأتركك خلفي وأمضي. وبداخلي تمنيت أن يكون ما قرأته في عين يك، وأحسسته في صوتك حقيقي، وأن يكون فراقنا بلا وداع.

وساعتها أتتني من وصال رسالة على "الواتس أب" تطمئن فيها على وصولي ومعنوياتي، فأخبرتها أنني لم أكن أسعد في أي يوم مثلما أنا سعيدة في هذه اللحظة، فدعت لي من قلبها، وقد ظنت أن لقائي بأصدقائي قد سرى عني ، ولا أعرف لماذا أخفيت عنها لقائي بك !.

ربما كنت بحاجة لمزيد من الوقت لأصدق أن ما أشعر به ويموج بقلبي يحدث حقًّا، وأنه يملا فراغات روحي، وربما كنت أنتظر، ألا تخلف ظني، وأثير اهتمامك كما أثرت اهتمامي، وملكت قلبي.

كنت فقط أنتظر منك، أن تعشقني وتمضي معي ما تبقي لي من عمر، فهل كنت أبالغ وقتها، أم كنت فقط أنتظر أن يحدث ؟!

ربما تجيبني الآن وأنت تقرأ، وربما سيظل السؤال كغيره بلا إجابة، بعد أن خذلني حلمي .

لن أقول خذلتني فثقتي بك لن يشوبها شائبة، لقد أطمأن قلبي لك، وذاق الهوى على يديك، ولا يكفي العمر كله عرفانا بالجميل على هذا الإحساس.

***

"حبيبي سامح ".

أحب أن أعرفك على أصدقائي السكندريين (رحاب، وريم، ومعتز) والذين يحملون بداخلهم كل بذور الرقي والشهامة المنقرضة، والذين تعرفت عليهم عن طريق الفيس بوك، وجمعنا عشقنا للشعر والأدب والإسكندرية والقهوة والبحر.

لن أصفهم لك فما جدوى وصف الأشكال، يكفي أن تعرف أن أرواحهم نقية كنقاء ماء البحر في ليلة صيفية، الأرواح هي ما تهم في العلاقات الإنسانية.

ومع كونها زيارتي الأولى لهم، فإنهم أعدوا لي برنامجًا حافلا ومكثفًا قبل حفل توقيعي كبادرة منهم على سعادتهم بلقائي، ولم أرفض بالطبع .

فكان هناك الإفطار في مطعم محمد أحمد الشهير، والأرز باللبن بالأيس كريم عند عزة، وبالطبع فنجان القهوة والتشيز كيك في البن البرازيلي، وزيارة سريعة للقلعة، والسير لوقت قصير على الكورنيش. وختام برنامجهم الحافل كان الغداء في مطعم السلسة بالقرب من مكتبة الإسكندرية .

كانت مغامرة جميلة غسلت عن روحي همومها وقلقها، وأظهرت لي كرم أهل الإسكندرية الحاتمي، ولم يعد يشغل بالي إلا سؤال واحد :

هل رأيت في ما جذبك وسيشجعك على أن تأتي حفلة توقيعي لنلتقي، هل ستأتي يا سامح ؟.

وهل ستأتي لتراني كحبيبة أم كمغامرة ؟.

كان يكفيني في هذه اللحظة أن تأتي لأراك، وبعدها لتحرق هواجسي سلال أمنياتي، تنثر رمادها في قلبي.

متطرفة هي مشاعري أدرك ذلك جيداً، فقط هي متطرفة نحو من أحب، ولا تسألني بحماقة الرجال متى أحببتك؟ لقد عشت ألف عمر معك في الساعات التي جمعتنا سويًا في القطار.

كان قلبي مهيأ لك دون رجال العالم، فلم يلقَ العناء وهو يفتح لك أبوابه لتعتلي عرشه وعرشي، ولتختم على قلبي بعشقك.

لا يحتاج العشق لأكثر من نظرة كي يقع في القلوب، الحب كالنار، في لحظة واحدة تستعر وتضطرم، وتستولي على كل شيء.

فهل أيقنت يا حبيبي أن الشرارة التي أحرقتني كانت عينيك ، وما سكنها من لهيب الشوق والرغبة والاشتهاء.

مقهورة أنا بقيود المجتمع، فأقبل لأراك.

مضى الوقت سريعًا وكأنما كنت أحرقه بصدري لتكون بجواري، وفي الموعد المحدد كنت هناك في المكتبة الموعودة بصبحة أصدقائي، وفاجأني حضور ناقد شهير، بصحبة أحد شعراء الإسكندرية الشباب، والذي أعتبره من أعز أصدقائي، مع ثلة من القراء والمتابعين .

لم يكن حفلًا ضخما كحفلات أستاذي يوسف زيدان مثلًا، ولكن العدد برغم محدوديته كان يشع بالحب والتقدير.

مضى حفل التوقيع في المناقشات وأسئلة القراء، و إلقائي لبعض القصائد، وعيناي معلقتان بمدخل المكان وقلبي يدعو لحضورك يا سامح، لتداويه بقربك ودفئك.

لا تنزعج مني لحديثي بهذه الجرأة، أو تتهمني أن بأعماقي شيطانة متحررة ترغب في الإعلان عن نفسها، فأنا أعي جيدًا أن الشخصية الأخرى لم تكن إلا أنا، ولكنها لم تكن بجبني أو ترددي في بحثها عن السعادة.

كان قلبي مصرًا على أنك ستأتي، لم تكن أمنية بقدر ما كانت يقينًا يلفه الترقب.

وهو ما حدث، فلم تخذلني، وأشرقت روحي بحضورك بعد طول عتمة، ولمحت في عينيك نظرة غيرة أحببتها، لجلوسي بهذا القرب وسط اثنين من الرجال، برغم أن وجودي كان في مكان عام ووسط أصدقاء، وساعتها

منحتك ابتسامة، حملت ما بداخلي من سعادة ولهفة، وبعدها كانت كل قصائدي التي ألقيتها على مسامع الحضور من أجلك.

ومع ما انفجر بكياني من تقلبات وزلازل وأعاصير.. أدركت أن ما بداخلي لك ليس مجرد إعجاب أو انجذاب، أو فورة مشاعر، بل حب حقيقي مكتمل الأركان والمشاعر والتفاصيل .

فالقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء. وعنايته كانت في أن جعل قلبي يرق لك.

فالله قد يأذن للحب أن يولد في القلوب كبيرًا ومتدفقًا، وفي وقت قصير، فيندفع ككرة ثلج فوق سفح المشاعر فيبتلع في طريقه كل التردد والقلق والتحفظ، ليغدو في لحظات حياة كاملة مبهرة ومبهجة، كغزل البنات، وقطع الكراميل، وأغنية صباحية لفيروز.

انتهى حفل التوقيع، ورأيتك تتراجع لتفسح المجال للقراء والأصدقاء، وكأنك لا تريد أن تشرك أي شخص آخر في لحظتنا.

وعندما انفض الجميع من حولي تلكأت قليلًا واستغرقت وقتً ا أكثر من اللازم لجمع متعلقاتي ؛ لتنتهز أنت هذه الفرصة المرتبة، وتأتي لتحظى بتوقيعي على الديوان وأنت تمطرني بنظرات عاشقة ذاب لها كياني.

لقد وصلت رسالتك كاملة يا سامح، وكسب قلبي الرهان، وأيقنت أنا أن قلقي كان بلا مبرر.

ولأن اليوم أصر على أن يكون استثنائيًا، تواعدنا على اللقاء في القطار أثناء عودته للقاهرة، وتركت أنت كل شيء من أجلي، حتى متعلقاتك.

كانت لمسة رائعة منك يا سامح.

هل تذكر حديثنا، لهفتنا، نظرات أعيننا، كانت تلك المجنونة هي من تقمصتني، فحطمت كل الأسوار، ففتحنا قلوبنا على أعنتها، وهشمنا كل الأقفال.

وحدثتني أنت بكل صدق وأريحية عن كل ما يخص حياتك وتفاصيلها، قصصت على أذني عيوبك قبل مميزاتك، كنت كمن يحمل ثقل على كاهليه سره أن يتخلص منه، وبكل حب احتويتك، قبل أن تصدمني بخطبتك السابقة لسلمى.

لماذا ذكرت اسمها، لماذا لم تتركها كيان مبهم غامض، لا ملامح له ولا إشارة.

لن أخفي عليك أني لم أشعر بالغيرة في حياتي بمقدار شعوري بها في هذه اللحظة، ولكن عزائي الوحيد أنك كنت معي، وهذا أجبر كل شيء على أن يكون رائعًا.

obeikandi.com

وعندما أوصلتني إلى منزلي، دعوت الله والمطر يغمر كل شيء، أن يكون قدومك الثاني للمنزل مع والدتك لخطبتي، لن أستطيع أن أقول لتتزوجني، هكذا هي أحلامي متدرجة لا تجنح لشواطئ المستحيل مرة واحدة، ولكنها تروض نفسها على القبول بالمتاح، طالما أن المصائر بيد الله.

ومن نافذة غرفتي ودعتك، وابتسامتك تتسلل إلى روحي ووميض عينيك يضيء عتمتي، ولا أعرف ساعتها لماذا شعرت بأنك ملكي، وبأنني ملكك، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أنظر للسماء، وأقول:

- يا رب .

obeikandl.com

-13-

"حبيبي سامح".

لم ينتهِ اليوم برحيلك، ولا بذلك الوجع الممض الذي هاجت له مشاعري بعد أن غبت عن عيني في عتمة المساء، بل تبقت هناك ساعات أخرى تتمنى أن تكون لك، حظيت منها أسرتي ببعضها.

لن تتخيل مقدار سعادة أسرتي الصغيرة بنجاح حفل توقيعي في الإسكندرية إلا لو حضرت الموقف معي بنفسك . كان فرحهم جليًّا في طقوس استقبالي، بعد أن تبرع عدد من الحضور بالتقاط بعض الصور للحفل- كانت صورة منهم تحمل وجهك- ورفعوها على صفحتي بموقع الفيس بوك، وبعضهم رفعها على انستجرام، وشاهدها أبي وأمي وطار لها فرحًا.

كانت أمي قد أعدت لي عشاء يليق بملكة لا بشاعرة مبتدئة، وأحضر لي أبي تارت الفواكه الذي أعشقه. وبكل ما يعتمل بداخلي من حماس شاركتهم فرحتهم بي وبنجاحي .

وبالطبع كانت رسالة وصال المهنئة مسك ختام اليوم، بعد أن أخبرتني أن الطبيب المعالج لأمها كتب لها خروج بالغد، فالأمر لا يتطلب بقا ءها لفترة أطول في المستشفى، وستكمل كورس العلاج في البيت مع الراحة .

كنت أتمنى لو حدثتني يومها على الهاتف، و انتظرت طويلًا أن ينبض قلب الهاتف برنتك. كنت جريئة في انتظاري لك، ولم تتحلى يومها بالجرأة التي انتظرتها، كان عليك ألا تتردد لأن تلك اللحظات لا تنسى، فمادمت طرقت باب قلبي، ادخل واحتل عالمي كله، ليلي ونهاري، صحوي ومنامي، فأنا منذ رأيت وميض عينيك وقد أصبحت أنتمي لعالمك.

هل تخشى أن تنتمي لامرأة، حتى ولو وهبتك قلبها ؟!.

تفكر كثيرًا يا حبيبي، والعشق لا يحتمل كل هذه المقدمات. تفكر حتى في الأشياء التي يقتلها التفكير، ويبددها التردد.

وبرغم مرور الساعات وتبدد أملي في أن أسمع صوتك، ظللت ساهرة أدون في مذكراتي تفاصيل هذا اليوم كي لا يفوتني منها شيء، كنت على يقين من أن ما حدث اليوم يتخطى الاحتياج أو الرغبة في أن يحيا قلبي قصة حب تأخرت كثيرًا، كان هناك شيء قدري في القصة، لمسة خارقة للمألوف جمعتنا معًا، وكأننا خلقنا من أجل أن نلتقي، ونتبادل كؤوس الغرام.

بالطبع لن تسألني لماذا لم أبادر بالاتصال بك، أنت لست بهذه الحماقة كي لا تعرف الإجابة أيها الرجل الشرقي العنيد.

في صباح اليوم التالي كان علي أن أقوم بواجبي نحو وصال وأمها، وأيضًا أقص على وصال ما أخفيته عنها، وكان علي أن أتخذ من الحيلة، ما يجعلها تتجاوز عن تأخري حتى هذه اللحظة في إعلامها بكل ما أوصد عليه خزانة صدري، لذلك صنعت قالب كيكة منزلية بالشيكولاته كما تفضلها وصال وعمي رأفت، وحملتها معي، ومعها برطمان كبير من النوتيلا، ومجلة زهرة الخليج لوالدتها، وذهبت إلى منزلها مبكرًا، وكأني لا أرشوها فقط بل أرشو الجميع.

هل كنت أشعر بأني مذنبة لأني التقيتك وأحببتك ثم سافرنا سويًا في يوم واحد، أم لأنها السابقة الأولى التي يكون لي فيها سري الخاص، هي أنانية مفرطة لا أصدق أنها ستغفرها لي ببساطة؟.

أم هي حالة من الدوار المتفاقم بداخل روحي المنتشية، والتي تأبى أن تصدق أن الحب قد يتفجر بمثل هذه السهولة، ولا أن يستمر بهذه البساطة، ولا أن تدوم تلك السعادة الطاغية التي تلف كل تفاصيل يومي.

لماذا كنت أتوقع الأسوأ ؟.

لأنه جزء من شخصيتي وطبيعتي المتقلبة، كأنثى لبرج الثور.

وعلى الفور قرأتني وصال بفراستها المعتادة، وأدركت أن خلف ملامحي المدعية سر خفي، لذلك كانت عيناها تستجوباني طوال الوقت، ودون أن تخفي شكوكها من ناحيتي. ولا أعتقد أن عين يها تختلفان عن مصل الحقيقة أو التنويم المغناطيسي في استجوابي واستقراء ما يعتمل بداخلي.

ومن جانبي كنت أشعر بكل ما يشعر به، طفل أمسكه والده وهو يحاول أن يحرق البيت بعلبة بالثقاب.

تأكدت وصال من نوم أمها وتناولها الدواء، وساعدتها في تنظيف المنزل وإنهاء المطبخ ونحن نتبادل نظرات ذات مغزى والصمت يلفنا على غير العادة، وفي النهاية كان المجان العملاقان من قهوتها الخاصة، وعلى فراشها تربعنا متواجهتين، وخلال دقيقة كاملة لم تبعد عيناها الجميلتان عن وجهي، كمحقق مخضرم لن يتوقف لحظة في الضغط نفسيًا على المتهم، حتى يعترف من تلقاء نفسه.

أنهكتني اللعبة، فلم أستطع أن أواصل، لذلك رسمت على وجهي ابتسامة بلهاء، وتقمصت بها دور هاميس وهي تتحدث لأتون في فيلم (عروس النيل)، وألقيت على مسامعها جملة مختصرة جعلتها تنتفض في مكانها :

- "وصال .. إني أحب ".

وبكل ما داخلها من دهشة وصدمة قالت :

- " من، ومتى، وأين، وكيف حدث هذا، أجيبيني قبل أن أسلخ جلدك، وأطحن عظامك، وأعلقك من شعرك ".

أطلقت ضحكة متوترة، وأنا أتخيل وصال الرقيقة تنفذ تهديدها، وأوقن أنها على درجة عالية من الكفاءة لتنفيذه، بعد الآلاف من أفلام الرعب التي شاهدتها وتعشقها، ويكتظ بها حاسوبها المحمول، وكي أزيد من فضولها، ذكرت اسم وحيد :

- " سامح ".

وساعتها فوجئت بها تزيح القهوة جانبًا، وتنقض علي بالوسادة لتطوح بها في وجهي، وتضربني في أي مكان تصل إليه من جسدي، وهي تقول في غضب مصطنع :

- يوم واحد بدوني يا هنادي، تعودين لي فيه عاشقة.

وبأنفاس متلاحقة جلست لأقص عليها تفاصيل ذلك اليوم الرائع الذي بدا لي كعمر كامل من السعادة، وكان أول تعليق لها :

- أيحدث كل هذا في يوم واحد، ومنك أنتِ، هل صرعك الغرام بهذه السهولة ؟

وهنا تجسدت ملامح ك يا سامح أمام عيني، ودون وعي تكلمت من قلبي وأفضت:

- لا أعرف كيف أتتني الجرأة لأتحدث معه بكل هذه البساطة، وكأنه ليس غريبًا عني، كان شيء ما غامض يجذبني إليه ولا رغبة لي في مقاومته. لا أعرف كيف أخرجت ديواني الأخير من حقيبتي بسهولة، ومنحته له وأنا ألفت نظره أن عنوان بريدي الإلكتروني وصفحتي الشخصية على الفيس بوك، مطبوعين في نهاية الديوان، وكأنني كنت أمهد عن عمد للقاء ثان يجمعنا..

كنت كالممسوسة أتحرك دون إرادتي، كل تحفظي، ورهبتي من الغرباء زالت ووجدت من يهمس داخلي أن تقربي منه أكثر، كنت لبنى أخرى ولكنها هي أنا، لقد أيقظ بداخلي إحساس منعش أجربه للمرة الأولى، وسامته ورجولته استفزوني لدرجة أني سلمت من أول لحظة.

تمنيت أن يحضر حفل التوقيع، ولم يخذلني وأتى، ثم كان معي بعدها في رحلة العودة بالقطار إلى القاهرة، ولكن رحلة الذهاب لم تكن كرحلة العودة، لبنى التي حضرت إلى الإسكندرية قلقة من الجو ونسبة الحضور، غادرت الإسكندرية ولا يشغل بالها غير سامح .

وساعتها سألتني السؤال، الذي لم يؤرقني للحظة، لأن إجابته، حفرت بداخلي من أول دقة قلب:

- وما المختلف في سامح عن غيره، تتحدثين عنه منبهرة كالمراهقات ؟.

وبلا تحفظ، اندفعت لأجيب :

- ليس كل الرجال متشابهين يا وصال، بعض الرجال أعينهم ميتة لا حياة فيها، وبعضهم أعينهم تحضن وتضم وتحتوي، وتخبرك بكل شيء رغم كون أصحابها مجهولين لنا بالكلية. سامح من هذا النوع من الرجال، في عينيهِ حزن دفين يلمس روحك، يدفعك دفعًا لتربتي على روحه، كما أن نظراته كاشفة ترج كيانك وتعريك من كل شوائبك، وبرغم ذلك تمنحك أمان مفتقد ومكتمل، تضج ملامحه بالرجولة كمزيج ساحر يجعل أي أنثى تسلم له دون حرب أو معركة. من أول لحظة رأيته فيها، شعرت بأنه سيكون في حياتي بطريقة ما، بل وتمنيت هذا .

وكان رد فعل وصال بعد هذه الكلمات أن ضمتني بشدة وكأنني ابنتها، وقالت لي من وسط دموع الفرحة والتأثر :

- إن شاء الله سيكون لك نصيب فيه.. لابد وأنه جدير بك، من يحرك مشاعرك لهذه الدرجة .

وبصوت متهدج قلت الكلمة التي لا أنطقها، إلا وأشعر بأنها المفتاح السحري لكل شيء :

- يا رب .

مرت لحظات قبل أن تتمالك وصال نفسها، ثم تسألني في قلق :

- حسنًا..ألم يخبرك لماذا هجر خطيبته يا لبني، لابد وأن هناك سببً ا قهري، كي تفشل أول تجربة ارتباط لشخص يحمل كل هذه الصفات ؟.

صدمني السؤال الذي لم أعرف إجابته، وبكل تردد قلت :

- النصيب يا وصال .. النصيب .

ظهر عليها عدم الاقتناع وهي تقول :

- لا يمكن لأحد أن يعترض على النصيب يا لبنى، لكن لابد أن يكون هناك سبب مقنع ومنطقي لفسخ الخطبة، لا يغرنكِ الظاهر، لقد عاصرنا سويًا تجارب كثيرة، عن رجال كانوا في بدايتهم مثال للرقي والثقة والاحترام، ثم مرت الأيام، وظهروا على حقيقتهم مدعين وأفاقين، لا يعرفون عن الرقي شيئًا.. ألا تذكرين حاتم وسماح .

شعرت ساعتها بقبضة باردة تعتصر قلبي، وبحالة من الدوار اللحظي تغتال وعي، وأنا أفكر في ما قالته كاحتمال وارد ولو بنسبة واحد في المائة، برغم أنه وقر بداخلي يقين أن سامح لا يمكن أن يشبه حاتم في أي شيء.

كان حاتم وغدًا حقيرًا في تعامله مع سماح، خدعها بلسان ه المعسول وعندما ارتبطا ظهرت شخصيته الحقيقية، إنسان متسلط، سيء الظن، بخيل في مشاعره و إنفاقه، ويعمل طول الوقت على كسر شخصيتها وإشعارها بالدونية ، لذلك قلت بثقة لا أعرف من أين أتت لي:

- سامح مختلف يا وصال.. قلبي يؤمن بهذا ولا يمكن أن يخدعني، لابد أن العيب كان فيها أو في الظروف الله أعلم.

نظرت لي وصال في قلق وقالت :

- المهم ألا تتسرعي في حكمك عليه .. كسرة القلوب لا دواء لها .

وساعتها تجسدت في روحي ابتسامتك يا حبيبي، فقلت بعناد :

- سامح إنسان محترم يا وصال، وأنا مقدرة خوفك وقلقك علي.. وستثبت لكِ الأيام أنه ليس كل الرجال كحاتم أو فاروق .

قلتها ثم أصابني الخرس .

لا أعرف لماذا ذكرت حبيبها السابق فاروق، وأنا أعرف مقدار الألم الذي سيصيبها عند تذكره.

كانت تجربة مريرة خرجت منها وصال محطمة الفؤاد، فاقدة للثقة في كل الرجال، كافرة بالحب والمحبين .

لقد أفسدت كل شيء.

فهل كنت أدافع عن حبي الوليد، أم أهرب بجرحها من احتمالات غير مستبعد أن تحدث؟.

وبكل ما يعتمل بداخلي من أسف ضممتها، وأنا أشعر بجسدها يرتجف في قوة، دون أن تنطق إحدانا كلمة واحدة .

***

مر اليوم ثقيلًا على روحي، مما جعلني أشعر أن العالم كله خواء مفجع، مع أن وصال كانت قد تخطت تلك اللحظة السيئة وانفلات اللسان، وعادت لتتعامل معي بأريحية وكأن حديثي لم يترك بداخلها أي صدى، وأن ما بيننا يفوق أي انفعال طارئ.

وهذا جعلني أراجع نفسي، وأبحث بأعماقي عن سر لهفتي واستسلامي لمشاعري المتطرفة.

لقد قابلت خلال فترة دراستي من هم أكثر وسامة وأعذب لسانًا، فلم يتعلق قلبي بأحد منهم مثلما تعلق بك. وتربيت على أن الفتاة تحتفظ بمشاعرها حتى يأتي نصيبها، فلماذا تلك اللهفة وذلك الإصرار على أن أكون طرفًا فاعلًا سباقًا في قصة حبي لك؛ غير المضمونة حتى هذه اللحظة.

لماذا تصرعني مشاعري وتطلق كل نوبات جنوني، وشراستي في الدفاع عنك، لماذا صارت لبنى هي لوليتا، ولماذا صار الاثنان شخصية ثالثة أكثر غموضًا؟.

لم أجد إجابة شافية، ولم أرغب في إجابة ..

إن حلاوة ما أمر به يجعل البحث عن إجابات حماقة ما بعدها حماقة.

الحب لا يحتاج لمبرر، هو فقط يحدث، وعلينا أن نحافظ عليه، بل ونقاتل من أجله من اللحظة الأولى، ومعه يجب أن نكون أكثر حذرًا، كي لا تكون سعادتنا على حساب جرح أقرب الناس لنا .

وفي مساء اليوم التالي كان اتصالك يا سامح، ذلك الحدث الجلل الذي محا من دنيتي كل المشاعر السلبية، وأعاد لروحي حيويتها ورونقها.

كنت متحفظًا ومتوترًا، ومترددًا، وكأنما فاجأك أني أجيب على الهاتف، كنت كمراهق يخطو أول خطوة له في طريق العشق، بلهفة وحذر وتوق.

وكان علي أن أطلق العنان للوليتا بكل جنونها، وجرأتها لتفك عقدة لسانك، ونجحت تلك الشقية فيما جبنت عنه لبنى، لم تنتهِ مكالمة اليوم إلا وأيقن كل منا أن الآخر يحمل له من المشاعر ما يماثله أو يفوقه.

لقد أغلقت هاتفك وأنت سعيد، هذا ما وقر بأعماقي ؛ لأن هذه السعادة انتقلت لي على الفور.

فهل كان إحساسي صادقًا يا حبيبي ؟.

عندما تعددت المكالمات بيننا، وقلت أوقات الانتظار بين كل مكالمة وأخرى، بدأ شيء من الاطمئنان يتسلل إلى روحي، هل لاحظت هذا، بالطبع لاحظت ولكنك أخفيت الأمر بأعماقك كعادتك.

فرحتك عند اتصالي الأول بك منحتني نشوة عميقة، وساعتها أيقنت أنه لم يعد بيننا حواجز أو خطوط حمراء، فاقتربت منك أكثر، وتعمقت مشاعري أكثر وأكثر، وفر القلق كغيمة هاربة.

كنت أتوق أن أسمع من شفتيك تلك الكلمة السحرية التي ستعني لي بعدها كل شيء، ولكنك قلت وفعلت ما يعبر عنها ألف مرة، دون أن تعبر حروفها الأربعة بوابات شفتيك، فهل كنت ضنين بها ساعتها، أم أردت أن تتصنع الثقل والدلال .

أ ح ب ك.

هل حروفها ثقيلة إلى هذه الدرجة.

لا ألوم عليك في شيء، هي تلك المجنونة التي تمرح بأعماقي .

وصال نفسها أخبرتني أنني مجنونة وأنني أندفع في مشاعري، بل وتمادت وأخبرتني أنك تسيطر علي تمامًا ولم أنكر؛ لأني وثقت بك و بأخلاقك .

لقائي التالي بك في الإسكندرية كان مذهلًا بل خرافيًا، لن تصدق لو أخبرتك أني في لحظة ما شعرت بأن قلبي ينبض بما يفوق تحمله، فلم

أتخيل أنه في هذه الفترة القصيرة يمكن أن أعيش هذا القدر من السعادة، وكنت أقص على وصال شعوري وكأنني لبنى أخرى خلقت من جديد بين يديك، فهي لم تكن تدري أي شيء عن لوليتا التي تعلقت بك وسعت إليك، فقلت لها :

- اليوم كان أجمل أيام حياتي، كنت أحب الإسكندرية في المطلق، لكن بوجود سامح فيها معي أصبحت أعشقها، سامح و الإسكندرية أصبحا شيئًا واحدًا، البحر وسامح أصبحا حياتي .

وحتى هذه اللحظة أنا غير مصدقة أن الله اختصني بكل هذه السعادة، فسامح لم يكن فارس أحلامي فقط ، بل أصبح دنيتي كلها، لو تدركين مقدار فرحتي وهو يطعمني حمص الشام بيديه لحسدتني، الحمد لله على نعمة وجوده في حياتي، اللهم لا تحرمني منه ولو لحظة واحدة لا يكون فيها معي.

كانت وصال قد تخطت مرحلة القلق منك، وهو حقها المشروع بالطبع، فأنا أغلى ما في حياتها، وبعد جدال لم يتوقف بيني وبين وصال سألتني، وكأنها ترغب بنفسها في أن تعيش هذه اللحظة المقدسة :

- ما هو شعورك يا لبني، في أول مرة سمعتي منه كلمة أحبك ؟.

استعدت اللحظة بداخلي فشعرت بنشوة لا مثيل لها، وتوتر جسدي وصدى صوتك يتردد في روحي :

- لن أستطيع أن أصف لكِ روعة هذا الإحساس يا وصال، خاصة تلك اللحظة التي تلاقت فيها أعيننا، وتحركت شفتاه بحروف تلك الكلمة المقدسة الأربع، كانت حدثًا مختلفًا وإحساسًا مختلفًا كلمة أحبك عندما تخطف وتسيطر وتزلزل وتسرقك من نفسك، كلمة أحبك، أعلى من كلمة أحبك، أقوى من كلمة أحبك، أعمق من كلمة أحبك، أدفأ من كلمة أحبك..

كلمة أحبك من سامح كانت هي الأمان، إحساس كنت أفتقده، وعشته، وتملكني. ويومها علمنا سويًا، إن لدموع الفرحة طعم الحياة نفسها .

obeikandl.com

-14-

"حبيبي سامح ".

الآن أقولها و أكتبها و أعيشها دون قلق، ودون تفكير في الغد.

فمعها أشعر بالأمان، وبأني أواجه الدنيا وأنت معي ؛ سندي ومعيني الذي أرسله لي الله بعد سنين عجاف، لم أعد وحيدة ولم أعد أنتظر، ولم أعد خائفة من المجهول معك .

حتى المذكرات التي حرصت على كتابتها من أجل يوم واحد تمددت لتشمل أيامي كلها. فكل لحظة معك تستحق أن تدون، فبها أصنع عالمي السعيد .

لا أعرف كيف كانت تمر الأيام، ولا كيف تحول كل شيء إلى كلمة من أربع حروف تعني السعادة الخالصة : س ا م ح .

أصبحت لا أفكر إلا في ك، ولا أكتب الشعر إلا لك، أتنفسك، أنام على صوتك، وأستيقظ عليه، الدنيا كلها أنت، وأنا ملك لك .

obeikandl.com

ولأن العشق يفضح، أصبح كل من حولي يخبرونني أنني أصبحت أجمل، بشرتي نفسها كانت أكثر نضارة، ثيابي عطوري، إكسسواراتي، كانت تكمل القطعة الفنية التي صنعها عشقي لك .

حبك لم يغيرني كما يعتقدون، بل كشف عن كل جمال داخلي كنت أحتفظ به من أجل تلك اللحظة التي تدخل فيها حياتي، ففض بكارة خوفي وقلقي ومنحني عوضًا عنها الأمان والسند .

أصبحت لا أفكر في شيء إلا اللحظة التي سيجمعنا فيها بيت واحد، وعن كل الأحلام التي سأعيشها معك.

وبكل ما بداخلي من حماس، أصبحت ألازم أمي في المطبخ كي أجيد صنع الأطعمة التي تحبها، وكنت أتعلم كل يوم صنف جديد، وكأنني أتهيأ لأكون ملكة في بيتك، بل بيتنا الذي سأصنع لك فيه كل ما تحبه وتشتهيه.

كما أنني أوقفت جنوني وعشقي للشيكولاته كي أحافظ على قوامي، برغم أنه لم يكن يتأثر بمقدار الطعام الذي أتناوله.

حفظت سورة يوسف التي كنت تداوم على سماعها لأقرأها عليك بصوتي، كما أنني كنت أصلي كل يوم لله ركعتين أشكره فيها على السعادة التي أمر بها، و كي يحفظك لي من كل شر.

وبيني وبين نفسي أطلقت عليها صلاة الحب.

فأنا على يقين تام بأن الله لن يبارك في هوى يبعدني عنه، وكل هوى يقربني من الله سيحفظه الله لي .

***

تعلمت على يديك يا سامح معانٍ جديدة للسعادة والاحتواء، تعلمت أن الحياة كلها ساعات من الانتظار حتى لحظة لقاء الشخص المناسب، النصف الحلو كما يقولون، فلما أتيت ثملت بهواك وعشقك ورجولتك، ونسيت كل شيء في الوجود إلا دفئك، حتى إنني أعطيت الأمان للأيام.

كنت أنهل من حبك بقدر ما تتحمل روحي بل ويفيض، دون توقع لصدمة أو هزة قد تبدل تلك الأحاسيس الفارقة .

ولم أكن في حينها مطلعة على كتاب الغيب، لأعرف أن ما يبدأ بالسعادة ليس شرطًا أن ينتهي بها، وأن الحزن يتربص بنا، كقاتل غادر لا يلهيه شيء عن ثأره ، ولا عن جرحنا.

لا أذكر المقدمات التي جرتني لأصبح مجرد رقم في طابور انتظار ذلك الطبيب الشهير الذي أحالني إليه الدكتور خالد ابن عم أبي، والذي لم تستطع كلماته يومها أن تطمئنني بعد أن كسا وجهه العبوس والتوتر.

كان الأمر واضحًا أمامه في الفحوصات، ولكنه شك في مهارته وخبرته وأحالني لطبيب آخر، والذي كان أكثر عملية فألقى في وجوهنا بالنبأ العظيم.

-" تجلدي يا بنيتي .. المرض ابتلاء من الله لعباده المؤمنين ".

وبكل ما بداخلي من عدم فهم وفزع سألته:

- عن أي مرض تتحدث يا دكتور ؟

وجاءت إجابته الساحقة :

- للأسف السرطان منتشر في الرحم والمعدة، وخلال فترة بسيطة سينتشر في القلب والرئتين لو تأخر العلاج أكثر من هذا.

لم أستوعب ما قال، فعدت لأتساءل :

- سرطان ومنتشر ..كيف يا دكتور أنا أجري فحوصات سنوية ودورية؟.

أجابني في حزن:

- توجد حاليًا أنواع فتاكة من السرطان، تشبه الوحش المسعور الذي ينتشر في الجسد دون رادع، ومع الهندسة الوراثية، وغش كل شيء، يصل المصابون مثلك بالمرض وهم في حالة متأخرة.

سألته من وسط دموعي بيأس:

obeikandl.com

- والحل ؟.

وكانت الإجابة المخيفة:

- لا يوجد غير الجراحة، وللأسف الأمل فيها محدود .

كانت صدمة عمري. حكم حضوري بالإعدام.

إن ملخص كلمات الطبيب الذي حاول أن يهونها، أنني أحتضر، والموت ليس ببعيد عني.

ومن وسط كل أحزاني، وصدمة أبي وانهيار أمي، احتللت أنت يا سامح كل مساحة تفكيري.

الموت لم يكن مخيفًا لي يا حبيبي، ولكن الفراق هو المخيف، وحزنك من بعدي هو ما كان يعنيني في هذه اللحظة، ويومها لم أجد إلا أنت بعد الله لألجأ إليه.

كنت أريدك أن تطمئنني، أن تخبرني أن كل ما أمر به مجرد كابوس وسينتهي بمجرد يقظتي، كنت أريد لمستك وصوتك الرجولي ليخبرني أني قادرة على قهر المرض، والعودة كما كنت بصحتي وأحلامي .

obeikandl.com

ليوم كامل ظللت في غرفتي، أحاول استيعاب الأمر والرضا بقضاء الله وقدره، ومحاولة الوصول لحالة من التكيف كي أستطيع التفكير، والاستفادة بما تبقي لي من وقت في هذه الدنيا .

كان الأمر صعبًا إلى درجة لا توصف، وبكل ما يعتمل بداخلي من صراع لم أجد إلا وصال لألقي على كاهلها ببعض وجعي، ولم تتأخر هي لمؤازرتي.

وفي هذا اليوم بكينا كما لم نبكِ في حياتنا، وتحدثنا في كل شيء إلى أن جاء ذكرك، وسألتني عن خطوتي التالية معك، ومن وسط دموعي أجبتها:

- "أنا لا أخاف الموت يا وصال مثلما أخاف فراق من أحب، والأكثر وقعًا على قلبي أن يمد الله في عمري، وأن يُصر سامح فنتزوج، فبدلًا من أن أمنحه السعادة، يكون هديته على حبه وإخلاصه، وردة ذابلة لا لون فيها ولا رائحة ولا حياة .

فزعت وصال من كلماتي، وحاولت أن تواسيني ببعض العبارات المعتادة ولكني وضعت يدي على فمها وأكملت:

- "كنت أتمنى أن أكون امرأة كاملة من أجله، أن أحقق له أحلامه بزوجة صحيحة بدنيا، وأطفال يحملون اسمه، وأن تتحقق كل أحلامه عبري أنا.. أنا لا أخشى الموت مثلما أخشى حزنه على فراقي واضطراب حياته من

بعدي، هذه الدنيا كئيبة جدًّا يا وصال، ولا تمنح لأحد شي ئًا يتمناه إلا وأخذت منه مقابله شيئًا أكبر وأهم " .

سامح لا يدري كم أحبه، ولأي درجة تعلقت به روحي، أنا مؤمنة بكوننا خلقنا لبعض، ولكن الواقع الآن يخبرني بالعكس، وكأنه كتب علينا ألا نكون معًا، حتى ولو تزوجنا.

ذلك المرض اللعين الذي مات به جدي ومن بعده عمي، سيقتلني أنا الأخرى، أنا لا أتمنى شيئًا في الوجود، إلا أن أقضي ما تبقى من حياتي بين يديه، ولكن كيف أرضى له أن يتزوج إنسانة نصفها يحتضر، والنصف الأخر يبكيه، لن تكون سعادته كاملة معي أبدًا.

ومن وسط دموعها قالت ما لم تكن مقتنعة به :

- من يحب ي ج ب عليه أن يضحي يا لبنى، ولابد أن تكون تضحيته بلا حدود، خوضي الجراحة وبعدها اتركيه ليقرر.

لم أقتنع بمنطقها فقلت :

-" لا يا وصال من يحب لا يضع حبيبه في تجربة مماثلة، ولا يجعله يختار بين قرارين أهونهم مر، ولن يحققا سعادته، هل سأخدع نفسي، الطبيب أخبرني أن الأمل ضعيف، وسامح لا يستحق أن يعيش هذا النوع من الوجع.

ضمتني وصال إلى صدرها ولم تزد عن قول :

- الله كبير..دعينا لا نسبق الأحداث.

وعندما غادرتها كنت قد وصلت لقراري النهائي بشأنك، ولا أعرف كيف تحدثت إليك هاتفيًا يومها وقابلتك وأخبرتك بكل شيء.

كانت لحظة ضعف أقسمت ألا تتكرر كي لا أرى ما رأيته من حزن في عينيك ليلتها، واستعنت بكل إرادة داخلي كي أقمع لوليتا التي كانت في قمة الأنانية برغبتها في عدم البعد عنك، ثم قطعت كل قنوات التواصل بيننا كي لا يقهرني شوقي إليك.

كنت أعيش بين أحزان متعددة، أنت وأمي وأبي و وصال، وقصة حبي التي لم يكتب لها أن تكتمل، وبرغم ذلك كنت واثقة أن كل ما يحدث كان لحكمة، على الأقل سألتقي قريبًا بكريم أخي في السماء.

لم تستسلم يا حبيبي لذلك الطوق الذي فرضته علي حياتي، وبرغم قراري القاسي كنت سأحزن لو استسلمت، تلك المجنونة التي تسكنني والتي تعشقك كانت في شوق دائم إليك.

وبرغم الجو العاصف، والأمطار أتيت أنت لتؤازرني في شدتي.

أتحبني إلى هذه الدرجة يا سامح، هل غفلت عن قسوة الجو وجئت بملابسك الخفيفة هذه لأنك شعرت أني أحتاجك وأنتظرك.

شكرًا لك على كل شيء، شكرًا على لهفتك التي أجبرتني على لقا ئك، على ضمتك التي أنستني الوجع والمرض والقلق، شكرًا على قبلتك التي أمدتني بالحياة بعد موتي النفسي والمعنوي، وب إحساسي أنني ابنتك التي تخشى عليها من كل شيء وأي شيء .

كم كنت رائعًا في احتوائك ومواساتي بعد أن أنهكتني صرخاتي المكتومة.

شكرًا لأنك مازلت راغبًا في الارتباط بي، برغم كل ما أعانيه وما تقاسيه.

شكرًا لأنك جعلتني أدرك أن الحياة هي فقط اللحظات التي نشعر فيها بالسعادة، لا بطول العمر.

فاللحظة معك يا حبيبي بألف عمر وحياة .

obeikandl.com

-15-

"حبيبي وخطيبي سامح".

أتمنى لو تلتمس لي الأعذار على سوء سلوكي معك، خاصة بعد أن كللت دبلتك أصابعي وأصبحت رسميًا خطيبتك، فقد بدأت بعد الخطبة مباشرة مرحلة الفحوصات والتحاليل تمهيدًا لجلسات العلاج الكيماوي التي اقترحها علينا أحد الأطباء كبديل عن الجراحة.

ولم تكن تلك الفحوصات هينة ولا قليلة خاصة عملية خزع النخاع العظمي والبزل القَطَني التي عن طريقهما كانوا يحصلون على عينة من نسيج النخاع العظمي، والسائل المخي، وتلك الأخيرة برغم التخدير الموضعي كان ألمها لا يطاق، ولا أعرف كيف كان الأطفال يتحملونها .

كان مركز الأورام بالنسبة لي جحيم آخر من الحزن والألم، من يرى أعداد المصابين بذلك المرض الخبيث لن يتخيل أن هناك إنسان سليم يمشي على الأرض، والموجع للقلب أكثرهم الأطفال المرضى بهذا الداء الخبيث، ماذا اقترفوا ليخوضوا هذا الألم وتلك التجربة المروعة.

أنا لا أعترض على إرادة الله، ولكني لم أرى الحكمة خلف آلام طفل هزيل.

obeikandl.com

أعذرني للمرة الثانية يا حبيبي فالأمر مؤلم لدرجة لن تتخيلها، وما تلا جلسة العلاج الأولى كان بشعًا.

الألم في الخلايا، والقيء حتى أكاد أخرج أحشائي، ونوبات الدوار.

وجع ما بعده وجع، جعل روح تضج، وتحملي يتلاشى، وأعصابي تنفلت .

وأعذرني على هشاشتي ورعونتي التي جعلتني أرفض حضورك معي هذه الجلسات، برغم يقيني بتواجدك بقربي في كل جلسة، وعدم السماح بوجودك بجواري في فراش المرض، أو في مشاركتي قراراتي المصيرية، التي لا يمكن أن أحملك تبعاتها.

فبعد ثلاثة أشهر من العذاب لك ولكل من حولي، وبعد عدة جلسات مضنية، وتحولات أصابت جسدي وشعري وروحي ودمرتني نفسيًا تمامًا، قررت أن أخوض الجراحة

تلك الجراحة التي كنت أدرك بداخلي، أنها مفتاح النهاية، والخطوة التي ستسدل الستار على قصة حياتي.

لقد اكتفيت من الحزن والألم و إرهاق من حولي، واكتفيت بتلك الذكريات والأيام التي قضيتها معك.

لقد آن الأوان لتنتهي قصتي الحزينة، وتبدأ قصة سعيدة أخرى و.....

وهنا وجدت أمي تربت على كتفي وتمنحني منديلًا كي أجفف دموعي وهي تضمني إليها، لأتوقف عن قراءة المذكرات .

لقد مرت ساعة كاملة، لم تتوقف فيها دموعي عن الانهمار، وعندما حاولت أن تسحب مني تلك المذكرات قبضت عليها بقوة، فتركتها لي. فجلست أنا أسترجع كل ما قرأت خلال الساعة الماضية.

لم تكن مجرد كلمات، بل كانت نزيف روح عاشقة صادقة فقدت كل أمل في أن تحقق لمن تحب، ما يشتهي.

كانت رسالة حب واعتذار طويلة، على أمر لم يكن لها يد فيه.

كانت لمسة استثنائية، من أنثى استثنائية، تمر بمحنة لا يتحملها الرجال.

وعلى ذكر الرجال كفكفت دموعي، ونهضت لأكون بجوار والد لبنى المسن أحضه على أن يستريح قليلًا فوق مقعد أحضرته له من إحدى الغرف المجاورة، ولكنه أبى بإصرار أن يستريح وابنته تمر بما تمر به من معاناة ..

خمس ساعات لم يجلس فيها لحظة واحدة ..

خمس ساعات يتضرع إلى الله أن تخرج له ابنته سالمة ..

خمس ساعات كخمسة قرون كئيبة وسوداء ومظلمة ..

خمس ساعات من القلق والوجع ..

.....

وبعد نصف ساعة تلت تلك الساعات الخمس، خرج طبيب في منتصف العمر من غرفة العمليات، يحمل وجهه الشاحب الخبر الرهيب :

- البقاء لله..ليعوض الله عليكم ويصبر قلوبكم..قلبها لم يتحمل الجراحة، وقابلت وجه رب كريم .

وجع ..وجع ..وجع ..وجع ..وجع ..وجع .

كل ما شعرت به هو الوجع، الانسحاق، الطعنة المريعة التي زلزلت كياني ، كل الأصوات سكنت من حولي، ولم يتبق إلا صورتها وصوتها :

- لا يا سامح، مهما أحببتني، فحبي لك سيكون أكثر، دومًا سأحبك أكثر، وحتى آخر لحظة في عمري، وهذا وعد .

لقد رحلت وحافظت على وعدها ..

رحلت دون وداع ، ودون فرصة أخيرة أخبرها فيها كم أحبها .

لقد ماتت لبنى ..

ماتت حبيبتي ..

ماتت من بدلت حياتي من أقصى الحزن لأقصى الفرح ..

ماتت الحبيبة والصديقة والزوجة المنتظرة ..

ذهبت ولن تعود ..ولن يعود الفرح بعدها ..

وقبل أن أنهار لمحت نظرة سلمى المشفقة.

كانت حزينة بصدق لم أعتده منها، ثم دارت بي الدنيا، وسط صرخات أمي ووصال، ووالدة لبنى التي سقطت فاقدة للوعي، ودموع الأب الذي مات قلبه وأمله وحلمه بتصريح طبيب عجز عن فعل المعجزة .

نظرت لسلمى نظرة لا معنى لها، لم يعد أي شيء مهم، لم يعد لأي شيء قيمة.

وبكل ما يعتمل بداخلي من وجع، أطلقت صرخة ملتاعة، وسقطت على الأرض أنتحب .

وساعتها ماتت بداخلي الحياة.

obeikandl.com

وصال

obeikandl.com

obeikandl.com

-16-

بعد الفراق، جميعنا موتى، لا ننتظر توقف قلوبنا عن النبض، لنتيقن بأن كل لمحة من الحياة فارقتنا برحيل من نحب.

نحن موتى بغيابهم .

والموتى يفقدون اهتمامهم وإيمانهم بكل شيء، وبأنفسهم، ويصيرون بين الناس أشباحًا تمضي تأكلها الوحدة، ويسحقها الحنين.

والأشباح يستعمرهم الوجع، ويغزوهم المرار، ويعيشون موتهم الخاص ألف مرة وهم على قيد الحياة، كلما هاجت بأرواحهم الذكريات.

هل صارت لبنى ذكرى ؟!.

هل ماتت حقًّا؟!.

إنها برغم كل شيء حية بداخلي، ربما هي الشيء الوحيد الحي بروحي، ما أتنفسه هو عبيرها، ما يسري في دمائي هو شوقي إليها، إنها هنا، ولكنها أبعد من أن أحتويها ببشريتي المخجلة .

هل ستعودين يومًا يا لبنى؟!.

obeikandl.com

هل ستقهرين الموت والغياب وأجدك أمامي، تكملين نقصي، وتطببين جرحي، وتمنحيني الأمل الذي غاب بغيابك.

هل انتهى كل شيء حقًّا ؟.

هل أصبحت الأحلام سرابًا والسعادة وهمًا، واللقاء مستحيلًا ؟!

هل أرثيك حقًّا، أم أرثي نفسي ؟!

ما معنى أي شيء إن لم تكوني حاضرة وتشاركينني فيه ؟!

هل تذكرين البحر ؟!

هل يذكرك ؟!

هل بكاك كما أبكيك الآن ؟!

هل هو حزين مثلي ؟!

هل تدركين تاريخ اليوم، (2016/5/18م) اليوم هو اليوم الذي حددناه سويًّا لعقد قراننا، واليوم هو عيد ميلادي، واليوم العاشر الذي لم أذهب فيه إلى العمل.

هل تذكرين حديثك السابق معي، إنه محفور بقلبي كحبك :

- سامح !!.

oberkandl.com

- مولاتي .

- أتمنى أن تكون ليلة زواجنا يوم عيد ميلادك .

- ولماذا يوم عيد ميلادي، لماذا لا يكون يوم عيد ميلادك أنتِ؟ .

- أولًا لأنه الأقرب، وثانيًا كي يكون يوم ميلادك هو يوم ميلادي الحقيقي، يوم أن أكون زوجتك وأم أولادك .

اليوم يوم ميلادي يا لبنى، وعلى عكس ما تمنينا لا أشعر بأي سعادة، اليوم يوم الأحلام الذابلة، يوم الأحزان الكامنة بين الضلوع دون أمل في شفاء .

اليوم كباقي أيام عمري لن يحمل لي إلا وجع غيابك.

***

لم أعرف كيف مرت علي الأيام حتى أصل حيًّا لذلك اليوم.

للأسف لم يقهر حزني رغبة جسدي في الحياة، ولم ألحق ب هافي العالم الأخر حيث تسكن الملائكة أمثالها، إن كان لها مثيل.

لم يسعفني الموت، ولم أعد راغبًا في الحياة في عالم لم يتمسك بوجودها، أصبحت زاهدًا في كل شيء، كارهًا لكل شيء، الطعام عزفت عنه، العمل

لم أعد أبالي به ، أمي انشغلت عنها رغمًا عني بحزني وجراحي وحنيني للبنى .

غرفتي مغلقة طوال الوقت كزنزانة تحتوي وجعي وعزلتي، الشمس لم تعد تدخلها، والظلام استوطنها، فقط سماعتا الآيبود في أذني، تصحباني ليل نهار أتنقل عن طريقهما من التانجو إلى أغانينا المفضلة، ثم إلى بعض مقاطع ال mp3 التي سجلتها لبنى بصوتها لبعض قصائدها ونشرتها على صفحتها الشخصية على الفيس بوك، لتظل صفحتها مصدر للبهجة في عين قرائها، وشاهد قبر بالنسبة لي .

الساعات تمر كالأعوام، وفي عزلتي الاختيارية لا يعنيني أي شيء إلا أن أعيش مع طيفها؛ أحلام لا يمكن لها لحظة واحدة أن تتحقق وقد غابت أميرتها.

لم أصدق بعد أننا افترقنا !.

قلبي لن يتقبل بالأمر بسهولة، إنه لا يرغب ولن يرغب في أن يستوعب أمرًا مماثلًا، لقد توقف به الزمن، وأصبحت نبضاته بطيئة وباردة، حتى هانت في عيني الحياة نفسها.

فما معنى الحياة إن لم تكن هي فيها، وأهلًا بالموت إن كان سيقربني منها.

هي لم ولن تفارقني مهما حدث، ومهما حاولوا إقناعي.

إنها موجودة حولي في كل شيء.

أشعر بطيفها، بأنفاسها، أتنسم عطرها، أستمع لصوتها وضحكاتها، أعيشها وكأنها لم تذهب، أحيا وجودها وكأنها إلى الأبد باقية.

لقد راقصتها على موسيقى التانجو عشرات المرات، تكسرت على ذراعي وضمتني، وهربت مني ولاحقتها، وفي كل مرة كانت تنتهي الرقصة وأجدني وحدي، لا يصاحبني إلا البرد وحنيني إليها.

لقد صرت وحيدًا.

ومهما أتقنت التانجو فلن ننهي رقصتنا معًا.. بل لن نقوم بها من الأساس.. التانجو يحب الصحبة ..وبعدها لا صاحب أو أنيس .

***

لا أحد يرقص التانجو منفردًا

ولا أحد يحيا دون روح

أنتِ موسيقاي المفضلة

أنتِ كل أسرار الفرح

***

obeikandl.com

كانت صدمة موتها أثناء إجراءها العملية الجراحية ساحقة، وأطاحت بالجميع، أصيبت أمها على أثرها بجلطة في المخ، وربما تلحق بها قريبًا، فتقارير الأطباء عن حالتها الصحية مفجعة.

أبوها صامت لا يتحدث منذ سمع الخبر المشئوم، وفقد كل رغبة في الحياة . فموت الابن في حياة الأب، كارثة لا يمكن احتوائها.

إنها تخالف كل نواميس الطبيعة، وكل إيمان بالغد، هو حدث لا يضعه أي أب في حسبانه، فهو يؤمن أن الحياة مهما كانت قسوتها، لا يمكن أن تكون قاسية بهذا الشكل فيسبقه ابنه إلى الموت ، حتى يصطدم بالقدر المحتوم المؤلم، ليفقد إيمانه بالحياة نفسها وبالغد.

لا أعرف تحديدًا متى بدأ الحزن ينحسر ليتكتل في القلب وحده، لأشرع في التفاعل مع المتغيرات من حولي، وكأنني أستفيق من غيبوبة طويلة، لأصبح ألثر تماسكًا، وأخرج من طور أنانية حزني، لأهتم بأحزان من حولي سواء أكانت أمي، أو والدي لبنى.

لم يتجاوز الأمر في البداية كلمات قليلة مع أمي، أو مكالمة قصيرة مع أهل لبنى، وخلالها كانت تغريني العزلة فأعود لها، وأحيانًا تخنقني فأهرب إليهم.

وذات يوم تذكرت تلك المذكرات التي منحتها لي وصال يوم موت لبنى، وسألت أمي عليها فأحضرتها لي.

ومعنى نسياني شيء قيم كهذا طوال الأيام الكثيرة الماضية، أنني بالفعل كنت في دوامة سحيقة من الحزن سيطرت على تفكيري بالكامل.

كانت مذكرات لبنى تفوح ببقايا من عطرها المفضل، الذي مازال يعطر كل ذكرى جمعتني بها . وعلى عكس ما توقعت لم تكن المذكرات تحمل لي السلوى، أو رائحة الماضي الزائل، بل كانت تحمل لي مفاجأة مذهلة غير متوقعة، سببت لي صدمة وقتية عنيفة زلزلت عالمي كله.

وهذه المفاجأة كانت السبب في أن تداعت إلى الذاكرة عدة أحدث، لم أجد لها تفسيرًا في حينها ، وكل تلك الأحداث كانت تقودني إلى وصال.

***

جاءني صوتها الواهن ليقول :

- في الساعة السادسة، تمر علي في البيت أولًا، ثم سنذهب بعدها إلى ساقية الصاوي، هناك لقاء ليوسف زيدان أريد أن أحضره، وسنقابل خلالها صديقتي وصال، وستكون فرصة لتتعرف عليها.

كنت أشفق عليها من مشوار مماثل ومرهق، ولكني لم أرغب في أن أضايقها لذلك قلت :

- ستجديني عندك في الموعد تمامًا، كما أنني أعرف وصال جيدًا .

جاء ردها الغامض قبل أن تنهي المكالمة :

- ربما أنت بحاجة لتعرفها أكثر..أنا وهي روح واحدة في جسدين.

***

ومن طرف خفي لمحت لبنى ترقبنا من خلف شجرة قريبة، وعلى عكس ما يتطلبه الموقف من غيرة أو ضيق وجدتها تبتسم في فرح، وساعتها لم أفهم سر سعادتها، وعزيته للندوة التي لحقت منها نهايتها لكاتبها المفضل .

لوحت لها فأقبلت تخطر في خطوات رشيقة أعشقها، والابتسامة مازالت تغمر وجهها، ابتسامة جعلتنا نبتسم دون سبب ونبادلها الابتسام .

***

- وبالنسبة لوصال التي تغار الشمس من جمالها، ماذا تقول عنها لو قابلتها لأول مرة ؟.

***

هبطت لبنى من السيارة أمام منزلها مبتسمة مبتهجة وأشارت لنا بإشارة الوداع، ولم أستطع أنا أن أكبح جماح فضولي أكثر، فهبطت خلفها وسألتها:

- لبنى لماذا كل تصرفاتك اليوم غريبة وغير مفهومة؟! .

نظرت بشفقة ،ثم ابتسمت وقالت :

- لا تقلق يا حبيبي كل الأمور بخير، فقط احرص على وصال، ولا تضايقها أبدًا.

شعرت بغضب غريب- ما علاقة وصال بأي شيء - ولكني كبحت لجامه وأنا أتساءل في ضيق :

- لماذا أضايقها أو أبهجها، ما علاقة وصال بأي شيء، ما بيننا مجاملات ؛ لأنها صديقتك لا أكثر.

ابتسمت مرة أخرى، و ظهر مع بسمتها حزن مستتر، وهي تقول :

- المهم احرص عليها، وعاملها كأنك تعاملني، فإن هذا سيسعدني .

***

ومع الوقت بدأت أفهم، والآن ومذكراتها بين يدي، أستطيع أن أعرف كيف كانت تفكر في أيامها الأخيرة، ولأي مدى كانت تعاني وتتألم.

ففي هذه المرحلة لم تكن تكتب، بل كانت تنزف على الورق، لم تكن خائفة من الموت ، لم تكن تفكر في نفسها، بل كانت تفكر في، وفي سعادتي، حتى لو كان على حساب ألمها ونفسها.

تداعت لعقلي عشرات الذكريات، وأنا أقلب الصفحة التالية في المذكرات، والتي كانت تحتوي على صورتي المبتسمة بجوار وصال، بدون صورة أخرى للبنى برغم أنها تمتلك لنا عشرات من الصور في مواقف مختلفة.

صورة وحيدة لها ألف دلالة ومعنى .

ثم اصطدمت بتلك الكلمة التي كانت تتوسط الصفحة ، وكتبت بنفس الخط المهتز:

"وصيتي لسامح".

وعند هذه النقطة لم أستطع أن أتمالك نفسي، ففاضت مشاعري، ونزلت دموعي بغزارة لتغرق وجهي والأوراق، ثم انطلقت في وصلة نحيب مريرة، وصورتها في كفنها تحتل كل كياني .

في لحظات مماثلة يتساوى كل شيء في الحياة، ويصبح كل شيء بلا معنى.

لابد وأنها كانت تبكي وهي تخط هذه الكلمات، لابد وأن أمطار عينها قد روت ما بين السطور لتكتب هذه الكلمات المشبعة بكل مشاعر الرجاء والتوسل.

- حبيبي سامح، لو أنك تقرأ هذه الكلمات الآن، فما توقعته قد حدث، ووجودنا سويًا أصبح من المستحيلات، وأنني وفيت بوعدي وأحببتك حتى آخر لحظة من عمري، وأثبت لك كيف أني أحبك أكثر.

أدرك جيدًا يا سامح أني عاملتك في الأشهر الماضية بطريقة قاسية ومؤلمة، ولي كل العذر يا حبيبي فالعلاج الكيماوي، حولني لشبح أنثى، شعري الذي طالما تغزلت فيه تساقط وترك رأسي خالية وصرت صلعاء، لابد وأنك لاحظت أني ارتديت الحجاب في الفترة الأخيرة، جسدي نحل وهزل وأصبح جلدًا على عظم، لون بشرتي تغير، رائحة أنفاسي أصبحت كريهة، غير الوجع والألم المستمر الذي كنت أداريه عن أقرب الناس لي، لدرجة أني أدمنت المسكنات.. حبيبتك يا سامح أصبحت مدمنة.

أنا لا أقص عليك هذه التفاصيل كي أزيد من حزنك ووجعك، كل ما أريده أن تدرك لماذا تصرفت معك بقسوة وحدة، وكي تسامحني من قلبك رغم إني أدرك عن يقين أن قلب مثل قلبك، لن يهون عليه يومًا أن يقسو على حبيبته، التي تحبه كما لم تحب أحدًا من قبل.

سامحني يا سامح؛ لأنه لا خيار آخر أمامك إلا أن تسامحني فأنا حبيبتك - أمازلت تراني حبيبتك يا سامح- وأتمنى أن تغفر لي الخطوة الأخيرة التي سأخطوها وحدي من أجلنا.

و لتكن على يقين تام بأني لم أتمنَ شي ئًا في الوجود بقدر ما تمنيت أن أكون بجوارك، حبيبتك وأختك وزوجتك وأم أولادك.

أتذكر يا سامح ماذا كنا سنطلق عليهم؛ ضحى وفريد، كانا سيكونان بوسامتك وجمالك وحنيتك وطيبة قلبك .

أقسم لك يا حبيبي ..بل أقسم لك ألف مرة، أنني لم أخفي عنك توقيت الجراحة، ولا عجلت به إلا لأبعد عنك تلك اللحظات الحزينة، كنت دائمًا تخبرني أني فرحتك، ولم أكن لأجعلك تعيش الحزن والقلق أكثر من هذا، يكفي معاناة الشهور الماضية.

لقد سكنني إحساس أن النهاية قريبة، وكنت راضية بها ؛ لأنها إرادة الله، أعرف أني سأدخل غرفة العمليات ولن أخرج منها إلا على قبري، ولكني أتمسك بأمل خافت من أجلك ومن أجل أمي وأبي.

وأقسم لك بكل غالٍ وعزيز على قلبي، أنك لم تفارقني لحظة واحد ة، وكنت أشعر بك دائمًا حولي وبقربي، شكرًا يا سامح على وجودك في كل مرة كنت أكون فيها في مركز الأورام ، هل تعتقد أنني لم أكن لأشعر بوجودك أو اهتمامك، أنت أقرب لي من حبل الوريد.

أحبك جدًّا يا سامح.. وحبي هو الشيء الوحيد الذي أضمن لك أنه لن يتغير، كحالة جسدي وظروفي.

كن قويًا كما تعودت منك، وكن سندًا وعونًا لمن يحتاجك، إننا لن نبتعد إلا بالجسد، لكن روحي دائمًا ستكون معك، وقلبي لن يتوقف عن الدعاء لك حتى ولو صار ترابًا.

الشيء الثاني والمهم يا سامح، والذي يجب أن تنفذه، ولا تنكص به؛ لأنه وصية من حبيبتك، أن تعيش حياتك وتفرح.

لا تجعل حياتك تتوقف عندي، لابد أن تحقق كل أحلامنا التي حلمنا بها سويًا، لابد أن تتزوج، نعم يا حبيبي لابد أن تعيش حياتك وتتزوج، وتعطي الحب النادر الذي بداخلك لمن تستحقه، صدقني يا سامح، هذه اللحظة هي التي ستنير قبري، وستجعلني سعيدة حتى يجمعني الله بك في الجنة، وبالطبع لن أتنازل عن أن يكون اسم ابنتك الأولى لبنى، لابد للبنى أن تكون موجودة في حياتك، ومثلما كانت حبيبتك تكون ابنتك .

كل ما أكتبه هنا يا سامح نابع من قلبي، قلبي الذي لم ينبض ويعرف طعم السعادة إلا على يديك، لا تخذل قلبي ولا تتركه قلق عليك ..

إنني واثقة جدًّا من حبك لي مثلما أنا واثقة من أنك كنت بالنسبة لي الحياة، وصدقني يا سامح إنني مت سعيدة جدًّا، مت وحبك حي بداخلي.. أستحلفك بهذا الحب أن تنفذ وصيتي وتتزوج .

لا تعتقد أني لا أعرف شخصيتك، وكونك رافض لكل ما أطلبه منك، ولكنها سنة الحياة وما قدره الله.

وأنا مؤمنة بكل ما قسمه لنا، فلا تحزن، ولا تجعلني أحزن على فراقنا ؛ لأنه لم يكن مكتوب لنا أن نكون معًا في هذه الدنيا.

كان من الممكن أن أقبل إلحاحك بأن نتزوج قبل إجرائي الجراحة، وأموت وأنا زوجتك، وأكون نصيبك في الجنة؛ فالمرأة لأخر أزواجها، لكني يا سامح لست بهذه الأنانية، لأجعلك تقترن بشبح، ولا يمكن أن أجازف بألا تتزوج بعدي، كنوع من أنواع الإخلاص الذي يسكن روحك.

أعرف أن كلامي قاسٍ وربما بارد، ولكنك أنت من أخبرتني، أن القسوة أحيانًا كثيرة هي أنسب تعبير عن الحب .

من اللحظة الأولى التي عرفتك فيها، وأنا أحيا بالكامل إحساس كوني زوجتك، ولذلك سيكون لي نصيب فيك –إن شاء الله- في الجنة.

ولو أن لخاطري مكانة عندك، فلا تسمح للأحزان أن تهزمك، افرح يا سامح، وفرحني معك، وتزوج، وفي كل لحظة من حياتك، سأكون بجوارك، وستكون بجواري.

الموت يا حبيبي لن يهزم يومًا حبنا، وكي تعرف أني أنفذ وعودي ولن أتركك، اسمح لي أن أختار شريكة حياتك القادمة.

صدقني يا سامح أنت لا تعرف كم أنا سعيدة، وأنا أكتب لك هذه الكلمات؛ لأن أقرب اثنين لقلبي في الوجود سيجتمع ان تحت سقف بيت واحد، وسيكونان الأسرة التي تمنيتها، وسينجبان لبنى أرق وأجمل.

لا بد وأنك بذكائك المعهود خمنت من اخترتها لك.

هي يا سامح التي دوى اسمها في عقلك الآن، والتي جمعتكم الصورة والظروف وحبي لكما، هي وصال، صديقتي وأختي وتوأم روحي.

أنا موقنة أن كل ما أخبرك به درب من الجنون، ولكن صدقني في حالتنا هذه، فالجنون هو أعقل شيء في الدنيا.

وصال هي اختياري لك، وهي من تستحق حبك وقلبك، وهي من ستسكب الفرحة في قلبك من بعدي. لقد فكرت كثيرًا في سلمى كخيار ثان، وعندما قابلتها أدركت أنها آخر من يصلح لك في الوجود، وهذا درب أعقد من الجنون سامحني عليه.

أتمنى يا حبيبي أن تكون عند حسن ظن قلبي.

أدرك أنك تفتقدني، وأنك موجوع، لكن صدقني، جزء من روحي يسكن وصال، و وصال ستكون هي حلقة الوصل بيننا، فلكل إنسان نصيب من اسمه ، و وصال نصيبها أن تكمل أحلامي معك.

لن أخفي عليك وأخبرك أني لم أتحدث معها في هذا الموضوع، لقد وفرت عليك خطوات كثيرة، وكان موقفًا جنونيًا دعمتني فيه للمرة الأولى لوليتا التي تغار عليك من النسيم نفسه، وبالطبع لم تستوعبه أو تصدقه وصال في حينها، ولكني واثقة أنها لن تجد من هو أفضل منك، فهي لم تخفي يومًا إعجابها بشخصيتك ودماثة أخلاقك، ومن هنا سنبذل بعض الجهد لينقلب هذا الإعجاب حبًّا.

أبي وأمي ووصال أمانة في عنقك، و وصال هي أنا يا سامح، ومع وصال ستجد كل الإجابات، والأجمل من هذا كله أنك ستجد السعادة.

كانت عندي أحلام كثيرة تمنيت أن نحققها سويًا، كنت أتمنى أن أكون أنا سبب سعادتك الوحيد، ولكن لكل شيء حكمة، فلابد وأنك تستحق من هي أفضل مني .

حبيبي سامح، آخر صفحة من المذكرات دونت فيها بعض الأمنيات التي تمنيت أن نحققها معًا، لا تحرم وصال أن تعيشها، وصال تستحق هذا وأكثر.

أحبك يا سامح ..

أحبك بجنون ..

وأتمنى ألا تخذلني أو تهمل وصيتي ..

إن كنت الآن ميتة، فغدًا أحيا بوصالكما ..

obeikandl.com

-17-

لم أصدق حرفًا واحدًا مما قرأت، لا يوجد عقل طبيعي قادر على استيعاب ذلك الموقف المزلزل، هل يصل العشق والإيثار إلى هذه الدرجة العالية من التضحية والبذل..

هل يصل حب إنسان لإنسان أن ينسى نفسه تمامًا، ويفضل من يحب على نفسه وذاته بهذه الطريقة الغريبة ؟!.

ضاقت روحي بما قرأت، وتلك الرسالة الضمنية أنها رحلت، وأننا لم نعد لبعضنا، وأن هذه هي نهاية قصتنا.

قلبي ينبض بسرعة وكأنه على وشك التوقف، وعقلي يقلب الأمر على كل الجوانب .

هل ما قرأته هذا صحيح؟!. هل يمكن أن تكون قد كتبته وهي تشعر بالسعادة بالفعل كما تدعي في مذكراتها ؟!

لا يمكن بالطبع، لا توجد أنثى طبيعية واحدة يمكن أن تقوم بفعل مماثل، لابد وأن مرضها والضغوط المحيطة بها، قد أثرا على تفكيرها

openkanal.com

وحسن إدراكها للأمور؛ بل وجعلاها عرضة للوقوع تحت ضغط نفسي عاتي جعلها تكتب هذا الجنون، وتلك الوصية الغريبة.

أنا أتزوج ..

وأتزوج من مَن!!

وصال ..

صديقتها وتوأم روحها، والشاهدة الثانية بعد البحر على قصة عشقنا الملتهبة والمتأججة.

وصال التي شاركت لبنى أحلامها، عليها الآن أن تشاركها حبيبها، بل و تتزوجه، وتكون سعيدة وتنجب منه .

لا يوجد منطق في الحياة قادر على تفسير أو تقبل شي ء مماثل . ولا يمكن أن تكون تقبلت بالأمر بتلك السعادة التي تحاول أن توحي إلي بها في كلماتها ..

ماذا كان شعورها وهي تفكر في أن تمنح حبيبها وزوجها المقبل لامرأة أخرى ؟

هل تهشمت كرامتها، هل انفطر قلبها قهرًا، هل فاضت روحها بالنزيف، قبل أن تمحو كل هذه المشاعر عاصفة حبها لي ؟!.

obeikandl.com

لماذا يا لبنى تركتني في قلب هذه الدوامة العاصفة ؟!.

لا أحد يا لبنى يكمل حياته بمثل هذه الطريقة التي تطالبينني أن أكملها بها، أنا أذكر جيدًا حديثك لي عن ابنة عمتك سوزان، والتي تزوجت رغمًا عنها لشخص لا تحبه ، أذكر كلماتك جيدًا :

- أقسم لك يا حبيبي أن الفتاة لا تتزوج مطلقًا، ويطلق عليها لقب عانس، أفضل ألف مرة من أن تتزوج رجلًا لا تطيقه ولا تحبه، لا أحد يختار أن يسجن طول عمره بين يدي سجان يكرهه .

كلماتك أحفظها يا لبنى، وأؤمن، وتؤمنين بها، وبرغم ذلك اخترتِ لي سجني وسجاني .

وكان علي أن أخبرها رأيي دون تأخير، لذا فإنني غادرت عزلتي، وغرفتي، وخرجت أشعث الشعر، غير مهندم الثياب، وقررت أن أذهب لأزورها في قبرها.

كان الوقت قد تخطى منتصف الليل، والطقس بارد، والطبيعة حزينة ومنهمكة في صب أحزانها على كل مكان في مدينتي العتيقة.

أمي كانت قد خلدت للنوم ولم تشعر بخروجي ليلتها.

الشوارع كانت مزدحمة برغم كل شيء، والبشر يتحركون في كل مكان وكل منهم يحمل حزنه الخاص وهمومه.

الوجوه حولي لا تعكس أي فرح، وكأن هذه الدنيا ميتم كبير.

كل شيء في عيني حزين، وكل شيء يعكس هذا الحزن حتى جسدي المرتجف كان ينعي فقدها.

لم أكن أوقن من قدرتي على قيادة السيارة، ولكنها تحركت في النهاية وقطعت الطريق، وتوجهت بي صوب المقابر، وكلي أمل أن أذهب إلى هناك بلا عودة، كي أهنأ بقرب لبنى.

المكان مظلم وموحش، ولكن ما بداخلي من وحشة يفوقه بمراحل كثيرة.

وأمام قبرها وقفت أبكي، وأدعو لها، مستحضرًا أجمل ذكرى جمعتني بها، مرسخًا صورتها بقلبي ووجداني، غير مصدق أن ما يفصلني عنها مجرد جدار من آجار بهتت ألوانه، وبضع كلمات كتبت بالطبشور تنعيها.

برغم وجودنا في فصل الربيع إلا أن الجو كان باردًا على غير العادة، إنه برد آخر الليل، ومع ضعف بنيتي وملابسي الخفيفة آلمتني كل عظمة من عظامي لابد وأني سأصاب بالبرد لو بقيت لفترة أطول ، ولكني لم أبالي إلا بوجودي قربها، حتى وإن كانت لا تسمع ولا تنصت، برغم يقيني بأن روحها حاضرة معي، فقط علي أن أخبرها بما قررته، دون أن أتوقع أن تحضر لي معطف والدها لأتقي سهام البرد، ولا أن تضمني لتحي يني حرارة جسدها .

وأمام القبر المظلم الغارق في الظلام جثوت على ركبتاي، وبدأت حديثي معها، حديث من أعمق أعماق القلب:

- حبيبتي لبنى.. هل تشعرين بالبرد مثلي، لا أعتقد أن من بداخله حب كحبك يمكن أن يشعر بالبرد، لابد وأنك ترين الآن مكانك في الجنة، وتتنسمين ريحها، وأتمنى أن يهون الله بها عليك الوحدة، برغم إيماني أن من يحب لا يمكن أبدًا أن يكون وحيدًا.

الموت يا حبيبتي فراق مؤقت، رحلة مهما طالت بعدها لقاء، وأعرف أنك ستنتظرينني دون ملل ودون أن يخفت حبي بداخلك لحظة، وأعدك أنا أن أبقى على العهد.

سامحيني لعدم قدرتي على منحك الدفء في هذه الليلة الباردة، ليست المرة الأولى التي أقف فيها أمامك عاجزًا، ولكن هل يهم هذا الآن ؟!.

أرغب منك فقط أن تنصتي لي، لقد عودتك دائمًا أن أحلامك أوامر واجبة التنفيذ، غير أن وصيتك الأخيرة صعب تنفيذها إن لم يكن مستحيلًا، لن أستطع أن أحب أحدًا من بعدك، ولا أرغب في هذا، سأحيا ما تبقى من عمري الذي أدعو ألا يمد الله لي فيه، حتى نتقابل في الجنة.

obeikandl.com

لا يمكن أن أكون لأخرى، لا يمكن أن أستيقظ صباحًا لأجد امرأة أخرى غيرك في فراشي، لا يمكن أن أحقق أحلامك بصحبة امرأة غيرك، حتى ولو كان هذا البديل هو اختيارك .

سامحيني لن أستطيع .

وفي هذه اللحظة كشفت سحابة مارة عن قرص القمر المضيء، ورأيت طيفها الحزين، كلمحة خاطفة، لا أعرف إن كانت مجرد هلاوس أم حقيقة، وإن كنت أتمنى أن يكون كل ما حدث ومر بي مجرد كابوس وسأستيقظ منه لأجدها بجواري.

زادت حدة البرودة، وكأننا عدنا لفصل الشتاء ، فزادت آلام عظامي، وأجبرتني على أن أغادر المكان بعد أن ألقيت عليها السلام.

قضيت الأيام التالية أعاني من آثار الحمى، و ا قتربت بشدة من الموت الذي تمنيته كثيرًا، وفي الدقائق التي كنت أعود فيها إلى الوعي، كنت أشاهد أمي بجواري، وفي بعض الأحيان كنت أرى وصال، ولكن الذي لم يفارقني لحظة هو طيف لبنى الحزين.

رحمتني الحمى والغيبوبة من صراع نفسي طويل، وعندما عبرت مرحلة الخطر وعدت إلى وعي، قررت أن أعود للعمل وأدفن أحزاني فيه، كما أنني لم أنقطع عن زيارة والدة لبنى، التي تحسنت حالتها إلى حد كبير، وإن

لم تعد كما كانت من قبل حتى في أشد حالات مرض ابنتها، ربما لأنها كانت تحيا على أمل لم يعد موجودًا.

انهمكت في العمل حتى عاد نجمي يتألق، وما أنجزته بعدها أنسى الجميع حالتي السابقة، وحرص كل من أصدقائي في العمل على عدم تذكيري بها.

مر شهران، وفي أحد الأيام أتاني اتصال مفاجئ من وصال، طلبت فيه مني زيارة والدة لبنى في منزلها.

كنت لم أرها منذ أسبوعين كاملين، لم أفهم لحظتها لماذا لم تتصل هي، ولماذا جعلت وصال الوسيط ؟!.

وعادت لي كل ذكرياتي الموجعة، ولكني لم أكن لأتأخر عنها، وبعد انتهاء العمل كنت هناك أما م باب شقتها، أضغط زر الجرس المميز لتفتح لي وصال.

يا الله.. أهذه هي وصال.. أهذا هو القمر المنير الذي أضاء حياة لبنى؛ حتى قررت أن تمنحها أغلى ما تملك، حبها وأحلامها.

أهذه الشاحبة النحيلة المنكسرة، هي تلك الفاتنة التي شاركتني حب لبنى وصورة جمعتنا سعداء ذات مرة.

إن الحزن قاهر، ومدمر.

صافحتها في صمت، وتبعتها داخل المنزل إلى غرفة والدة لبنى، وعندما رأيتها شهقت، وسُحق قلبي من اللوعة والألم، وقد شممت في المكان رائحته الكئيبة، رائحة الموت ، التي تفوقت على رائحة المرض، ورائحة الغرفة المكتومة.

إنها تحتضر..

أم لبنى تحتضر..

لم تعد تطيق الحياة بعد ابنتها، وتسعى للوصال، وتتعجل اللحاق بها.

عندما رأتني تهلل وجهها، ومن بين تجاعيدها انتزعت ابتسامة باهتة، فاندفعت نحوها لأقبل يديها وأبكي.

بعد لبنى أصبح البكاء عندي أسهل من التنفس، فروحي مهشمة وقلبي هش، كم كنت أحب تلك العزيزة الطيبة، وقلبي لن يحتمل صدمة أخرى.. لن يحتمل طعنة أخرى من القدر..

وبكل ما بداخلي من ألم ووجع، رفعت وجهي إليها، وقبلت رأسها وقلت بلهفة:

- أوحشتني كثيرًا يا أمي.. أوحشتني.. سامحيني على تقصيري، فكل شيء في البيت يذكرني بلبنى، يذكرني أنها لم تعد موجودة.

obeikandl.com

وفي هذه اللحظة، شعرت بيد وصال على كتفي، وصوتها المضطرب المشبع بالحزن يخترق روحي :

- إهدأ يا سامح ..طنط شادية لن تتحمل مثل هذه الكلمات.

وقبل أن أرد عليها، أتى صوت والدة لبنى مواسيًا :

- دعيه على راحته يا بنيتي.. فالحزن قد وصل لمنتهاه، ولا يوجد شيء قادر على زيادته، وأنت يا سامح تجلد، فأنت الفرحة الوحيدة المتبقية لنا.

حاولت أن أمنع دموعي، ولكني لم أستطع، و انهمكت أبكي لدقيقة أخرى، قبل أن أتوقف وأقول بصوت مختنق :

- لن أقدر على نسيانها يا أمي، لن أقدر.

ربتت على رأسي بيديها، وقالت :

- ومن الجاحد الذي يمكن أن يطالبك بشيء مماثل، لا يمكن لأحد منا أن يطالبك بشيء كهذا، ولكن عليك أن تنصت لي جيدًا، فلبنى ليست سعيدة بحالتك هذه، لبنى ماتت على حبك، ولم يكن يشغل بالها إلا سعادتك.

نظرت لها في غير فهم، فاستطردت قائلة :

- لا بد أنت ووصال أن تنفذا وصيتها، لبنى لن تستريح في قبرها، إلا لو رأتكما أنتما الاثنان ترفلان في السعادة .

احتبس الكلام في حلقي، وأنا أنظر لها غير مصدق، فاستطردت قائلة:

- لبنى زارتني في المنام، ومن قبل المنام وهي حريصة علي أن أتم ارتباطكما. وظروف مرضي وحزني، منعتني أن أفاتحك في هذا الموضوع، وقد حان وقته ، فنفذ وصيتها.

إن كل ما يحدث حولي جنون، لبنى ثم أمها وسط كل هذا الحزن.

ماذا لو وافقت، هل توافق وصال، وماذا لو وافقنا سويًا، هل سنحيا حياة طبيعية، أم سأكون لها مثل فاروق الذي غدر بها؟!.

السعادة لا يمكن فرضها فرضًا .

نظرت نحوها ثم نحو وصال ووضعت رأسي بين كفي، ولم أستطع أن أرد، في حين استغلت الأم تواجدنا معًا، ووجهت حديثها لوصال وقالت :

- وصال أنا أخطبك الآن لأبني سامح، فهل أنت موافقة؟.

ونظرنا سويًا نحو السيدة شادية وكل منا عاجز عن الرد ..

هل يمكن المجاملة في شيء كالزواج ؟!.

هل يجبرنا الحب أن نصير فئران تجارب، فنحيا حياة لم نخترها؟!.

ما ذنب كل منا لنوضع تحت هذا الضغط النفسي الرهيب ؟!.

كم أشفق عليك يا وصال، وكم أشفق على نفسي من هذه المحنة، المغلفة بكل المشاعر الطيبة. فطريق الجحيم مفروش دومًا بالنوايا الحسنة.

الصمت بيننا ..

العيون حائرة وقلقة..

والعقول رافضة..

والقلوب تئن في محرابها.

وصال يا ملاكي الطيب، لا أعرف كيف أعتذر لك عن هذا الموقف، لا أعرف ماذا جنيت في حياتك لتخوضي تجربة مماثلة؟!

هل أنا نحس بالفعل كما نعتتني سلمي ذات يوم، وعلى كل من يقترب مني أن يعاني ؟. لقد بدأت أرى كم كانت سلمى صادقة أخيرًا في وصفها لي.

وفي النهاية، أشارت السيدة شادية لوصال أن تقترب منها، ثم سحبت يدي ويديها، و ألصقتهما ببعضهما، وقالت بصوت حسم كل شيء:

- لنقرأ الفاتحة.

obeikandl.com

وشهقت وصال، ثم بكت.. وبكيت أنا أيضًا، وبدون إعداد مسبق ألقينا أنفسنا في أحضانها، لتضمنا في قوة ،قبل أن نسمع صوتها الواهن يقول :

- آن لكِ أن تستريحي الآن في قبرك يا لبنى.

***

الحب قدر

والفراق قدر

ونحن لا نملك من أمرنا شيئًا

obeikandl.com

-18-

لم أؤمن يومًا أن الإنسان مخير في أي مرحلة من مراحل حياته، فلم يخير أن يولد، أن يخوض تجربة الحياة، أن يعاني طوال الوقت في بيئة لم يخترها، وبشر فرضوا عليه، وفي مشاعر لم يتحكم فيها، وفي نهاية مبهمة لحياة أبدية أخرى في الجنة أو السعير.

الإنسان يقاد طوال الوقت في محنة الحياة، فقط يوهمه غروره أنه هو من يختار الطريق ، في حين أنه من بداية حياته حتى مماته، لن يدرك كنه هذا الطريق .

لقد اخترت(لبنى) .

واختارت لي الأقدار ، و لبنى، والأهل.. (وصال).

وصال نفسها لم تختر، وهذا أبسط حقوقها، لم يجب أن يتم ابتزازها عاطفيًا. وعلى كل حال، لقد تم الأمر و انتهى، والبكاء على اللبن المسكوب إهدار للوقت والجهد والمشاعر.

كانت أيام معقدة مشحونة بالتوتر والهواجس والمخاوف والتردد، وعلى كل المستويات لم يكن إتمام الأمر بالسهولة المتوقعة، سواء على جانب وصال العائلي، أو على الجانب الروحي والنفسي.

كما أنني ترددت في قبول الأمر عشرات المرات، فقلبي مازال يئن من طعنة فراق لبنى، وألم شوقي إليها، وحنيني الطاغي لوجودها كي ترحمني من كل هذا العذاب.

كنا نمر بوقت عاصف، ولكن الجميع كانوا قد راهنوا على حبنا للبنى ورغبتنا في إسعادهم، وربحوا الرهان في النهاية .

كنا كمن يقادو ن نحو المذبح، كمن يقدم سعادته كتضحية ليسعد الآخرين، كنا نريد أن ينتهي الأمر وكفى، وما يتلو ذلك فليعيننا الله عليه ..

أصريت مع وصال على أن يكون العرس عائلي وفي أضيق الحدود، ولكن والدة وصال رفضت فكرة أن يكون العرس عائلي، رفضت وحاربت ووقفت أمام الجميع.

إنها ابنتها الوحيدة، وأول فرحة لها، لابد أن يكون لها عُرس كبير كما يحدث في عائلتها. تدخلت أطراف كثيرة، وعندما توترت الأمور حسمت الأمور والدة لبنى، التي أخبرت الجميع أنها ترغب في أن تفرح هي الأخرى بابنتها وصال، وتريد أن يكون فرحها حديث المدينة.

كان الأمر بالفعل ضغط نفسي مروع، وكنا نتحرك عبره كالمغيبين، ننفذ إرادة أعلى، نجبر أنفسنا على التنازل في كل مرة نصر فيها على إعلان تمردنا على الأمر.

وفي كل لحظة كنت أتساءل، هل ما يحدث بالفعل ؟!.

هل رحلت لبنى ؟!.

هل كتبت وصيتها ؟!.

هل أوصتني حقًّا بالزواج من امرأة أخرى ؟!.

هل تستحق وصال بعد تضحيتها هذه، أن تحظى برجل قلبه معلق بأخرى حتى لو كانت ميتة ؟!.

كل ما يحدث حولنا ولنا ، كان مغلفًا بالجنون.

والجنون الأكبر أننا كنا ننفذ وصية لبنى، ورغبات ذوينا، ونستعد للزفاف.

سأتزوج من اختارتها لي حبيبتي، وخطبتها لي أمها ؟!.

لا أعرف لماذا رغم كل شيء كنت أرى الأمر كخيانة كبيرة، خيانة للبنى ولنفسي ووصال..

خيانة مغلفة بغلاف زائف من التضحية والحب.

obeikandl.com

الخيانة هي الخيانة مهما كانت مبرراتها .

كانت أمي تشعر بما أمر به، ولكنها اختارت الصمت هذه المرة، وكأنها أيقنت أنها المعركة الوحيدة التي يجب أن أخوضها وحدي.

لأي سبب يا أمي تركتني وحدي ؟!.

متى يا أمي كنت وحدي هكذا ؟.

هل كتبت علي الوحدة بعد لبنى، ومن بعدها أنت ؟!.

الوحدة تقتلني، والوقت المنقضي يخبرني أن الليلة الموعودة أوشكت، وعقلي لم يتقبل بعد، وقلبي جريح.

وفي كل مرة كنت أعاني، كنت أزداد حزنًا على وصال .

كنت أجاريهم لعل المعجزة تحدث من عند الخالق، فأموت لألحق بلبنى، ولكن للأسف مد الله في عمري لأصل لذلك اليوم .

كنت أشعر برهبة، وبقلق عاصف، وأحمل مشاعر المجبور والمغصوب، السعادة كانت غائبة عن روحي، وصال نفسها كانت تشاركني الأمر، فلم يحدث بيننا تواصل في الليالي التي سبقت ليلة الزفاف، وكأنها كانت هي الأخرى خجلى، وتشعر بأنها تخون صديقتها .

كنا وحدنا.. برغم أن الجميع كانوا يحيطون بنا.

كنا وحدنا.. وقد ارتدت الحياة في أعيننا ثوب الحداد.

كنا وحدنا.. نموت.. نتعذب ..نقاوم.. ونستسلم .

حاول الجميع أن يدعموننا فكانوا يزيدون الأمر سوءًا، وإن كانت السعادة الحقيقية تغشى أعينهم، وفي محاولة منهم لمحو كل ما مر بنا من حزن وتوتر نفسي ومعاناة، تعاون الجميع معًا، و اشتركوا في كل التفاصيل التي تخص ذلك اليوم .

كل منهم تحمل مسئولية جزء من إعدادات اليوم، فأشرفت النساء على تجهيزات العروس، وإعدادها لليلتها الكبرى. العروس المجبورة، التي لن تكفي زينة الدنيا لترسم ملامح الفرح على وجهها.

منحني والد لبنى حلة العرس التي اشترتها لي لبنىكهدية قبل موتها، ومعها أزرار مذهبة راقية كلمسة حب صادقة لا تنتهي، وكأنها كانت واثقة مما ستؤول إليه الأمور في النهاية.

يا ليتها أهدتني كفنًا، يختصر أيامي الحزينة، ويقربني منها.

والذي قاد بنا السيارة في موكب العرس كان والد وصال بنفسه، وقد زينها من الخارج، وكتب أحرف اسمينا بداخل قلب على مقدمة السيارة بالزهور، ويا ليته كتب تلك الحروف على شواهد قبورنا، لكنا أسعد حالًا، وأكثر راحة.

***

جلست بجوار وصال صامتًا، في تلك السيارة التي حملتنا من صالون التجميل إلى قاعة العرس، كانت مضطربة، ومتوترة، وحزينة، ومندهشة، وكأنها غير مصدقة لما يحدث، وما آلت إليه الأمور .

وعندما تحركت السيارة بنا فاضت مشاعرها فبكت، وأخذ جسدها يرتعش وكأنها أصيبت بالحمى.

حاولت أن أشد من أزرها بكل حماقة، فهمست في أذنيها، إن لبنى سعيدة الآن، ولا يجب عليها أن تفسد فرحتها، فزاد بكائها.

كم يشفق قلبي عليك يا وصال، وكم تتمزق روحي من أجلك، فأنت أرق من كل هذا الوجع الذي أصبح نصيبك.

كم أنت صادقة، وكل ما حولنا كاذب .

ولم أجد بدًّا من أن أقبض على يدها لجعلها تهدأ، وحاولت أن أوقف كل تلك الدموع التي كانت تفسد زينتها دون جدوى .

حاولت أن أمازحها، وأخبرتها أن دموعها هذه ستعلن للجميع أن العريس غير وسيم، فابتسمت ابتسامة باهتة، ونظرت لي بامتنان، فأخبرتها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وبهدوء جففت دموعها، وحاولت أن أصلح

شيئًا من زينتها، لتمنحني نظرة امتنان أخرى، وبداخل قلبي شعرت بانقباض.

دخلنا القاعة يرتدي كل منا قناع بهجة زائف، كان علينا أن نثبت للحضور أننا سعداء، كان علينا أن نحتفظ بسرنا داخل صدورنا، وأن نمحو من على وجوهنا ما تغلي به أرواحنا.

كم كنا نعاني في هذه اللحظة!

وما جعل الموقف أقل قسوة، أن الجميع كانوا سعداء بالفعل.. أمي، ووالدي لبنى ، وأهل وصال.

لذلك ظل حزننا بداخلنا، ولم يكسر فرحة من حولنا .

بدأت الأغاني تصدح في المكان مع أضواء الليزر المبهجة، وفاج أني الدي جي بقائمة من الأغنيات اشتركت لبنى ووصال في كتابتها وإعدادها في وقت سابق ،كما أخبرتني وصال وقلبها يعتصر من الحزن.

كنت كالمغيب، أشعر أن ما يمر من حولي مجرد حلم باهت، واقع غير منطقي سنفوق منه في لحظة ما.

كنت أتقبل التهاني من المدعوين، وعلى وجهي ابتسامة تخص شخص آخر، كنت أتلقى دعاءهم لي بحياة سعيدة ،ولا أتخيل بجواري إلا لبنى.

obeikandl.com

امتثلت لكل ما طلبه مني معدي الحفل.

قطعت كعكة العرس.

ألبست وصال شبكتها الذهبية.

توسطنا شباب العائلات الفرحين وشاركناهم رقصهم.

رقصت مع وصال رقصة التانجو التي طالما حلمت بها لبنى، وبداخلي يتعاظم شعوري بذنب مزدوج .

كل هذا كان يخص لبنى.

كل هذه الأحداث والمراسم والطقوس، حلمنا بها سويًا، وتخيلناها، وانتظرناها ، وهاهي تتحقق وكل منا في عالم مختلف، وبداخلي صرخت :

- سامحيني يا لبنى.. سامحيني.

لم يتوقف شعوري بالذنب على لبنى، بل كانت وصال هي خنجر الوجع الحقيقي.

لن يدرك معاناة وصال، إلا من كان يعرف قوة الصلة الروحية التي كانت تربطها بلبنى.

وصال هي أكثر أطراف هذه المعادلة وجعًا وتضحية.

obeikandl.com

لقد لمس حزنها قلبي وروحي وأحرقني ..

والليلة بالذات كانت ثقيلة على روحها، والمفروض أنها كانت ليلة وصال الكبرى، الليلة التي تحلم بها كل فتاة، الليلة التي تبلغ فيها سعادتها منتهاها، التي تتوج فيها كل أحلامها بشريك عمر قد اختارها من بين كل نساء العالم، لتمضي معه ما تبقى من العمر، الليلة التي ستمنحها الشعور الذي حلمت به طوال عمرها ..

الأمان والاحتواء .

كانت ليلتها ولكني لم أكن رجلها، فظلت وحيدة خائفة.

كنت أتمنى أن أشارك وصال فرحة حقيقية كتلك التي أراها في أعين الجميع ، والتي وصلت بهم أن رقصوا جميعهم حولنا مع كبر أعمارهم.

جميعهم تشربوا لحظات الفرح، جميعهم تمنوا أن يدوم، جميعهم تذكروا لبنى، وأشفقوا على وصال، فكنت أضحك معهم وقلبي يبكي .

دعمت وصال بكل ما بداخلي من قدرة على المقاومة، لدرجة أني أشعرتها أني بالفعل أرغبها، وأني لم أقم بهذا الأمر تنفيذًا لوصية صديقتها الراحلة، بل لأني أرغب فيه وفيها .

لم تصدق بالفعل ما قلته، ولكن اختلاجة شفتيها أوحت لي أنها تمنت من داخلها أن تصدق .

obeikandi.com

وكي أدعمها أكثر استدرت لأواجهها، وقلت :

- وصال ..

- نعم ..

- هل تدركين أنك أجمل عروس رأيتها في حياتي.

وعلى عكس ما رغبت وتمنيت بكت، وهي تنظر نحوي بخليط معقد من المشاعر، لا أعتقد أنها هي نفسها كانت تفهمها.

الدموع في عينيها تزيدها جمالًا وفتنة، الحزن يليق بها بشدة، في موقف آخر وحياة أخرى، كانت وصال لتصبح أجمل عروس وأسعد نساء الأرض، ولكنه النصيب .

وكانت محاولتي الفاشلة هذه، آخر ما تفوهت به حتى نهاية العرس.

وما كنت أخفيه عليها، وأنا أبادلها النظرات مدعيًا الفرحة، أنني لا أراها، وكل ما أراه في الوجود هو وجه لبنى، فلم يغب طيف لبنى عن عيني لحظة واحدة، وكنت أشعر بها حولي، وكأنها حية لم تمت.

كانت تنفذ وعدها رغم رحيلها، فلم تفارقنا لحظة واحدة .

كنت غارقًا في أوهامي وأحلامي عندما صدحت الموسيقى التي تعلن بكل بهجة انتهاء مراسم الاحتفال، وفي هذه اللحظة التفتت نحوي وصال ونظرت لي نظرة تضرع، وكأنها تطالبني أن أنقذها مما هو آت .

نفس نظرتها المستجدية قبل أن توقع، وتبصم على عقد الزواج.

سامحيني يا وصال ..

***

غريق يستجدي الحياة من غريق

فكيف لمن على ضفاف الموت

أن يرى ضوء الطريق

obeikandl.com

-19-

الحب ابتلاء شديد، لا يتعافى منه المرء إلا بمعجزة إلهية، في زمن انتهت فيه المعجزات، وغاب عنه رسل المحبة.

وحبنا للبنى في حالتنا هذه كان ابتلاء شديدً ا، انتزع منا حق الاختيار أو النقاش، أو حتى مراجعة النفس.

لم تكن وصية لبنى وحدها التي شعرت ساعتها بكونها انتقام وليس حب، لقد تورط جميع من حولنا في المؤامرة، وعلينا طوال الوقت أن نثبت أننا باقون على العهد، وأن القلوب ثابتة ومخلصة للبنى.

لو أوصتني لبنى بعدم الزواج لكان وقع الأمر أفضل، وتنفيذه أسهل، فما عشته معها برغم شهور المعاناة كان يكفيني لعدة أعمار، ولكن هذا الفخ، وهذه المحنة تفوق كل تعقل.

لو أوصتني بالزواج فقط لربما في يوم ما أنفذت وصيتها، ولم يحمل السر إلا قلب واحد، ولم يتعذب إلا قلبي.

لماذا لم تقتصر وصيتك على طلب الزواج مني، لماذا ورطتي ملاك نقي القلب يحبك مثل وصال في هذه التجربة المشئومة، أين كان عقلك يا لبنى لتلقيني في هذا العذاب ؟.

انتهت كل مراسم العرس، فقامت الفرقة الاستعراضية بزفافنا حتى السيارة التي كانت معدة لتقلنا إلى بيت الزوجية.

كانت وصال معلقة في ذراعي، تتشبث بي وكأنها تطلب مني حمايتها من خطر مجهول، ولأول مرة في هذه الليلة أشاهد ملامح القلق على وجه أمي، ولم أستطع ساعتها أن أطمئن قلبها بنظرة كاذبة ؛ لأنها كانت ستكشف زيفها على الفور ليتضاعف قلقها، فأشحت عنها وهربت ببصري نحو وصال.

وبدون إرادة وجدتني أقبض على أصابع وصال وأضغط عليها، ألتمس منها المساعدة أنا أيضا، فبادلتني نظرة خائفة.

وخلال أقل من ساعة، كان موكب السيارات قد وصل للبناية التي توجد بداخلها شقة الزوجية، التي اختارت أثاثها وصال، وألوانها وديكوراتها لبنى.

كل شيء في الشقة كان يذكرني بها، رائحتها كانت تعبق كل شيء، وتعذب روحي.

كانت أصعب لحظة في حياتي.

لحظة تمنيت ساعتها لو تنشق الأرض وتبتلعني، فأختفي من أمام وصال لتعود لروحها السكينة .

من أين تأتين بكل هذه الدموع يا وصال ؟!

وصال تقف في قلب الصالة تائهة، وأنا أمامها، وجهها شاحب باهت كأوجه المحتضرين، تنظر لي ثم تنظر نحو غرفة النوم المضاءة والمعطرة، والتي تنتظر لحظتنا المميزة ..بهلع .

الصمت بيننا، ولبنى بيننا، ومخاوفنا بيننا، وألف سد من وجع .

نعود لنتبادل النظرات في لوعة وألم ..

كل مخاوفنا ورفضنا، تجمع في لحظة آسرة قاهرة ..

لقد انتهى الآن كل دور للآخرين في القصة، وعلينا الآن أن نبدأ قصتنا.

كانت خائفة ومتوترة، حتى أن زينتها بدأت تسيل على وجهها مع دموع القهر والقلق. كنت أحتاج لمن يطمئنني يا وصال، قلقك يزيد من مصيبتي. إن خوفي يماثل خوفك ويزيد، لا أستطيع تحمل هذه الخيانة.

هل أخونها أم أخونك أم أخون نفسي.

المكان يضيق على روحي، وأنت ترتجفين، كيف يا وصال وافقنا أن تصل الأمور إلى هذه المرحلة ؟!.

ما يدور في رأسك أبعد بكثير مما أفكر فيه ولكن الخوف واحد.

جميلة أنت في فستان عرسك الأبيض. ملاك بالكٍ ، خائف ، مرتجف ، فاتن ، وسيء الحظ.

لا يمكن أن أتركك لقلقك وخوفك، لو فرض علينا الأمر حتى هذه اللحظة، فقد آن الأوان لنقرر، لنتحرك، ليكون كل منا درع يحمي الأخر.

أقسم لك يا وصال أن تكون هذه أخر لحظات حزنك، وهلعك.

وبكل ما يشتعل داخلي من شفقة نحوها، نظرت إليها ثم منحتها ابتسامة اطمئنان، وابتسمت هي الأخرى وهي ترتجف.

وقالت العيون ما عجزت الشفاه عن التعبير عنه.

وفي لحظة واحدة اندفعنا معا نلوذ ببعضنا، وتلقفتها بين ذراعي، واحتويتها بداخل حضني، وأخذنا نبكي سويًا.

يا لها من لحظة ويا له من وجع.

ولأول مرة في هذه الأوقات الحزينة تهدأ قلوبنا، وترفق بنا، وتسكن.

obeikandi.com

لأول مرة أشعر منذ زمن بأن قيود روحي تزول، وبأن الأمور لن تسوء أكثر، وبأنني بوجود وصال قادر على عبور تلك المحنة، التي لا أعرف كيف سنعبرها وقد ارتبطنا برباط مقدس مثل الزواج.

علي أن أساعدها، فهي زوجتي رغم كل شيء .

رغم الوجع، ورغم لبنى، ورغم الموقف الصعب الذي نحياه، وعلي أن أقوم بحمايتها حتى من أفكارها .

توقفت وصال عن البكاء، ولكنها ظلت بين ذراعي لفترة لا أعرف مداها، كانت تستمد مني الحماية، بحثت عن شيء ما ووجدته، وفي النهاية أبعدتها عني قليلًا، ثم قبلتها على جبينها، ومسكت يديها في رفق، وجعلت عينيها تواجهني وقلت لها :

- بإمكانك الآن أن تبدلي ثيابك وتخلدين للنوم بغرفة النوم، وأنا سأنام هنا في الصالة، أنتِ لست مجبرة على أي شيء، إني مدرك لصعوبة الموقف، و سنعبره سوياً.

نظرت نحوي بامتنان، ودخلت غرفة النوم بخطوات مترددة، وغابت قليلًا، ثم خرجت ترتدي قميص نومها الأبيض وفوقه معطف منزلي محتشم زادها فتنة، ومنحتني بيجامة حرير وغطاء، وقبل أن تنصرف نظرت نحوي في رقة وقالت:

- حاول أن تفرح يا سامح..كي تسعد لبنى هي الأخرى، وأنا أيضًا سأحاول، صدقني لا أحد يعرف أين الخير، الله هو الذي اختار لنا هذه النهاية، وأنا أثق في اختياراته، ولا تتردد أنت أيضًا في أن تثق به، فهو عند ظن عبده به.

ابتسمت لها، وكلماتها تتسرب إلى روحي، وتعلن لي أنها أخيراً، بدأت تتقبل الأمر، فتناولت يدها وقبلتها، وقلت :

- صدقيني يا وصال ..أنتِ نعمة من الله.

منحتني نظرة امتنان أخرى، جعلت قلبي يهدأ قبل أن تقول :

- وأنت تستحق كل خير يا سامح.

لم تعرف عيني النوم يومها، وكنت أشعر بوصال داخل غرفة نومها المغلقة، تتقلب في فراشها، وربما هي تفكر الآن في كيف ستمضي أيامها التالية!.

وعندما أذن الفجر الآذان الأول، تذكرت لبنى وأمنياتها التي لم تتحقق، ولكنها كتبتها في مذكراتها التي حفظتها، وتركتها في دولابي لدى أمي.

كانت أمنيتها في ليلة دخلتنا أن نصلي معًا الفجر جماعة، كانت تريد أن تبدأ حياتها معي بشكر الله، وهنا تذكرت أنني لم أصل العشاء، فقمت

مسرعا لأتوضأ وصليتها على عجل، لا أعرف إن كان يصح صلاة العشاء بعد الآذان الأول للفجر أم لا ولكني صليتها.

الله أكبر ..

وهنا غشيتني السكينة ..

الله أكبر من كل همومنا ، وكل معاناة مررنا بها ..

الله أكبر من كل لحظة شك واعتراض على ما قسمه لنا ..

الله أكبر ..

وهنا تذكرت المقولة التي دائما ما كانت ترددها أمي على مسامعي :

- لا تقل يا رب عندي هم كبير، بل قل يا هم عندي رب كبير.

انتهيت من صلاتي، ودعوت الله أن يزيح همي ويفرج كربي، ودعوت للبنى ولوصال، ثم توجهت إلى باب غرفة النوم وطرقته.

أتاني صوت وصال القلق، فقلت بصوت هادئ كي لا أزيد توترها:

- الفجر يا وصال ..سأنتظرك كي نصليه جماعة.

***

obeikandl.com

العشق غيب

والله وحده من يملك مفاتيحه

العشق غيب

فليس لنا غير تسبيحه

obeikandl.com

-20-

أمضيت الوقت الذي كانت تتهيأ فيه وصال للصلاة، وقلبي سارح مع لبنى، وعقلي تائه في عالمها، ممزق أنا بين عقلي وقلبي وواقع مرير، روحي ترتج بداخل جسدي، الحيرة تعتصرني اعتصارًا، العالم كله يضيق بي، وكأنه خلا من الأكسجين .

وكان السؤال الذي يؤرق عقلي، هل أحبتني لبنى فعلا لتختار لي هذا المصير ،كم مرة تحدثنا سويا عن الحب الحقيقي، وتعريفها له .. لم تذكر أبداً أن أتزوج صديقتها.

- الحب الحقيقي يا سامح أن يكون هناك صدر حنون، تستطع في أي وقت أن تضع رأسك عليه وتبكي، أُذن تنصت لم تقصه عليها، مهما كان يثير ضيقك أو حزنك أو غضبك ومهما كان تافها، رفيق لروحك تفتح له قلبك دون أن تقلق من أنه سيعرف أسرارك وزلاتك، أو يلومك على لحظات جنونك، ويتقبلك كما أنت، ويتقبل عيوبك قبل مميزاتك.

لقد اخترت أن تكوني أنت يا لبنى رفيقة روحي، فلماذا اخترتي لي أحدًا أخر؟.

كنت ألوم عليها وأحملها كامل المسئولية، وبرغم ذلك لم يفارقني طيفها لحظة واحدة، كنت أتمنى أن أرى نظرات الغيرة في عينيها، أرى أي لمحة حزن، أو أي مشاعر تعبر عن شعورها بالخطأ؛ لأنها منحت رجلها إلى امرأة أخرى.

كنت بحاجة لأن أشعر بندمها، بوجعها، بأي شيء يغطي على إحساسي بالذنب تجاهها.

ولكن طيفها ظل أمامي مبتسمًا، يصر على ألا يريح قلبي، وأن يجعلني كما أنا من البداية أخوض في بحر الأحزان وحيداً، وأمامي تغرق وصال .

أنهيت صلاتي مع وصال، فأنهت تسبيحها ودعائها، ثم استدارت نحوي وعلى وجهها ملامح سكون وراحة قبل أن تفاجئني بسؤال خاطف :

- سامح لماذا تعاملني هذه المعاملة الرقيقة.. هل أنت مشفق علي لهذه الدرجة ؟.

نظرت نحوها وقد عاد الاضطراب يغزو روحي، أنا لست مستعدًا لحوار مماثل، أو لتقديم تنازل جديد، أنا بالفعل أشفق عليك يا وصال، ولولا أننا في مكان واحد، ولولا صعوبة الموقف، لربما لم أكن أن أراك أو أهتم بوجودك إطلاقاً.

هل أخبرك أني أنفذ في تعاملي معك وصية لبنى، وأمنحك ما كان من حقها وما كانت تحلم به!.

هل أخبرك أني غارق في الشعور بالذنب، وأن ما فعلته يقتلني ويضنيني، وأنه لولا أني لا أرغب في خذلانك وخذلان الجميع، لتركت المكان الذي تسكنه روح لبنى، وهربت من كل هذا العذاب .

طفقت أبحث بداخلي عن إجابة دبلوماسية، لا تجرحها ولا تمنح وعود، ولا توحي بالأمل، وفي النهاية قلت :

- ومن غير مشفق على نفسه من هذا الموقف الصعب، ليهونها الله علينا يا وصال .

نظرت نحوي بنظرة عميقة ذات مغزى، وقالت :

- هل أنا سيئة إلى هذه الدرجة يا سامح ؟!

كنت أعرف أن شفقتي عليها أشعرتها بالإهانة، وأن أنوثتها وكرامتها جريحتان ، وكلماتي لم تطفئ ما تشعر به من وجع.

هي أنثى برغم كل شيء، وبرغم موقفها الصعب، وربما هي توقعت مني شيء أخر، وربما برغم ارتباطها بصديقتها، قد تقبلت الأمر في لحظة ما، وتوقعت مني أنا أيضا أن أتقبله وأعاملها بما تستحقه، وربما هي تشعر بالغيرة، وتريد رجلها.

هل تحتاج المرأة للحب لتشعر بالغيرة على رجلها ؟!.

كلها أمور معقدة وشائكة، وعلي أن أجيب على هذا السؤال بالطريقة الصحيحة، التي لا تزيد من الفجوة الموجودة بيننا من الأساس.

وبكل دبلوماسية أجبتها :

- الظروف هي السيئة يا وصال. كل رجل في هذه الدنيا يتمنى من هي مثلك، أدب وأخلاق، وجمال ، وثقافة، وإخلاص .

ضغطت على كلمة إخلاص بشدة، كي تذكر أن كل ما نمر به حدث ويحدث من أجل لبنى .

لمست الكلمات شيء بداخلها، فلملمت سجادة الصلاة، وتوجهت من فورها نحو غرفة نومها، وقبل أن تغلق باب الغرفة صفعني صوتها الباكي وهي تقول في اضطراب :

- سامحني يا سامح ..الموقف أكبر مني ..

ولم تنتظر ردي وأغلقت الباب في قوة، وساعتها أدركت، أنها بداخلها تخوض حربها الخاصة، وأنني لست خير معين لها، فتناولت من درج الكومود حبتان من المنوم، وبعد عدة دقائق رحت في سبات عميق، ولأول مرة من فترة طويلة لا أحلم بلبنى.

***

استيقظت بعد العصر على صوت وصال يوقظني ويدها تهزني، والتقطت أذني صوت جرس الباب الذي يعزف موسيقى التانجو، ولأول مرة أجدها مزعجة، لم أكن قد صحوت تماما، وفي لحظة واحدة أدركت الموقف فانتفضت مضطربا، وبكل ما بداخلها من ضيق قالت وصال :

- لو سمحت يا سامح اجعل هذا اليوم يمضي على خير، قابل الزائرين بوجه بشوش، وهيا لتغسل وجهك لتستفيق، وسأقوم أنا باستقبالهم.

وعلى الفور دلفت إلى الحمام وأغلقته خلفي، كنت أشعر ب إرهاق مضاعف من نوم الأريكة، ومن أثر المنوم، فأخذت دشًا سريعًا، وأعدت ارتداء ثيابي على عجل وخرجت لهم، وقد نويت أن أفعل ما حضتني عليه وصال، أن أكذب وأمثل دور الزوج السعيد.

لقد عبرنا مرحلة الكذب على الناس، لنبدأ في مرحلة الكذب على أهلنا وأقرب الناس لنا، وحمدت الله أن أمي أصرت من البداية على أن أمتلك شقتي الخاصة، لتمنح لزوجتي الخصوصية، والراحة التي تصبو إليها.

وحمدت الله أنهم تأخرو ا في الحضور، فمظهري في الصباح كان سيوحي بفشل هذه الزيجة، وبما نعانيه معًا.

كنت أدرك أن ذوينا كانوا على يقين أن الليلة لن تكون سهلة أو بسيطة على أي منا ..فتركوا لنا النهار كله ..

جلسة عائلية ودية كانت ستمر على خير، لولا أن انتحت أم وصال بها في غرفتها لعدة دقائق، قبل أن تخرج وعلى ملامحها بعض الضيق، والذي انتقل إلي مباشرة، وجعلني متوترًا طوال فترة وجودهم، وفي النهاية غادر الجميع، وتركونا، وفور أن أغلقت وصال باب الشقة، ابتدرتها متسائلًا :

- بماذا أخبرت أمك ؟!.

ظهر الخجل على وجها، وظهر صراع قصير على ملامحها، حسمته بعد أن أيقنت أنها تتحدث إلى زوجها، فلا داعي للحياء وقالت :

- كل خير يا سامح ..كل خير.

وبعصبية شديدة تساءلت :

- وما هو هذا الخير يا وصال، لقد خرجت أمك من غرفتك، وعلى وجهها الكثير من الضيق ، فما هو الخير الذي يجلب كل هذا الضيق ؟!.

وبكل حياء، قالت :

- كانت تسألني عن أخباري معك، فأخبرتها أن دورتي الشهرية فاجأتني بالأمس .

نظرت لوجهها المخضب بحمرة الخجل، وقلت:

- أنا آسف يا وصال ..لم أرغب لحظة واحدة في أن أضعك في هذا الموقف.

نظرت وصال نحوي بتفهم، ثم قالت:

- كله خير يا سامح .. هل أعد لك الإفطار.

دوت الكلمة في رأسي ورجتني من الداخل، الإفطار في الليلة الأولى حسب وصية لبنى من اختصاصي، ويجب أن أعده أنا لها.

كانت لبنى تحلم أن تستيقظ، فتجدني قد أعددت لها إفطارًا بسيطًا، وأحضرته لها في الفراش.

وعند هذه النقطة توقفت كثيرًا، فكررت وصال :

- هل أعد لك الإفطار؟ لابد وأنك جائع، فلم تتناول أي شيء من الأمس.

تفحصتها من رأسها إلى أخمص قدمها فتوترت، فقمت من مكاني لتتراجع بحدة، فتجاهلت أنا ردة فعلها كي لا أزيدها توترًا، وقلت:

- لا تجهدي نفسك سأعد أنا الإفطار وبعدها، سنذهب إلى السينما.

نظرت نحوي في غير فهم، ثم اغتصبت من داخلها ابتسامة قبل أن تقول:

obeikandl.com

- دع الإفطار لي، والسينما عليك ..

رددت عليها بإصرار:

- لا تتعبي قلبي يا وصال أبدئي في تجهيز نفسك للخروج، وأنا سأعد الإفطار.

تركتها مع حيرتها في الصالة، ودخلت إلى المطبخ، وعندما اختليت بنفسي، فرت من عيني دمعة وحيدة، وأنا أنظر لطيف لبنى الذي لم يغادرني لحظة، وقلت :

- سأعد لك طعام الإفطار يا لبنى ..

***

أثناء وجودنا بداخل دار العرض نشاهد الفيلم الرومانسي، تذكرت ذلك الإفطار، وذلك الموقف السخيف الذي خضته بسببه.

كنت قد أعددت إفطارًا بسيطًا، من الجبن والمربي والبيض المقلي، والزيتون، وقمت بتسخين بعضًا من أرغفة الخبز، ووضعته على طاولة طعام مزخرفة، وحملته إلى الصالة، وطيف لبنى لا يفارقني.إما أنني جننت أو عقلي يعبث بي، ولكنها كانت غائبة حاضرة، ورافقتني في كل مراحل الإفطار، حتى إنها هي من ناولتني الزيتون الأسود من الثلاجة.

obeikandi.com

وعندما خرجت من المطبخ إلى الصالة، وضعت الطاولة فوق المنضدة ثم ناديتها وليتني ما فعلت :

- الإفطار جاهز يا لبنى ..

دقيقة كاملة قبل أن تخرج من غرفة النوم، عيناها محتقنتان، وعلى وجهها أثار بكاء فشلت في إخفائه. وهذه المرة لم يزدها الحزن جمالًا بل أطفأ ملامحها، فبدت كجثة غريق انتشلوها لتوهم من قلب الماء، وبصوت مختنق، قلت :

- الإفطار.

وبعد عدة دقائق، أعادت وصال الطاولة إلى المطبخ كما هي، لم يتناول أي منا لقمة واحدة، ولم يهتم أي منا بالضغط على الأخر لتناول الطعام.

وها نحن في صالة العرض نشاهد فيلم يحكي عن عشق نفتقده، وكل منا غارق في أفكاره، منتظر مرور الوقت في ذلك السجن الاختياري القصير، حتى يعود ليدفن أحزانه في مكان أكثر خصوصية.

كنت أشفق على وصال بشدة، فما بين إخلاصها للبنى، وبين رغبتها في أن تعيش حياة طبيعية كانت تتمزق، وهو حقها.

الحي أبقى من الميت كما يقولون ، وهي تستحق أن تحيا، وأن تسعد، وأن يكون لها حياة حقيقية.

غادرنا دار السينما في صمت، وعدنا لشقتنا في صمت، ولليال ثلاث، ظل الصمت يخيم علينا، وصال تعد الطعام، نتناول لقيمات قليلة، نعود لصمتنا.

أوقفنا الزيارات العائلية التي لم تنقطع، بادعاء أننا سافرنا إلى الغردقة ،كمفاجأة أعددتها لوصال، وجعلت هذه القصة الجميع سعداء.

وفي اليوم الرابع أصيبت وصال بالحمى وارتفعت حرارتها إلى درجة مقلقة، وكنت أنا بجوارها، أقوم بخدمتها والسهر عليها، ودخلت هي في مرحلة من الهذيان، وقليلًا ما كانت تتمالك روحها، فتوصيني ألا أخبر أحد.

كان قلبي يتمزق من أجلها، فأحضرت لها ممرضة لتعني بها في الصباح، بينما كنت أقضي أن الليل بجوارها .

كنت قلقًا جدًّا عليها، وبدأت مشاعر لم أستطع تفسيرها تتسرب إلى داخل روحي، كنت هلعًا من أن يصيبها مكروه أو تلحق بلبنى، لبنى الذي غاب طيفها عندما حضرت وصال بداخلي.

لقد ضحت لبنى بحبها وببعض من اعتدادها بنفسها وكرامتها، واختارت لي امرأة أخرى، بينما وصال قد ضحت بهم، مع أحلامها، وراحة كانت من الممكن أن تجنيها لو لم تكن أكثر إخلاصًا لصديقتها، وها هي تضحي

بحياتها، بعد أن انهار جسدها تحت الضغط النفسي والعصبي، وكالعادة ظهرت في مخيلتي سلمى، وهي تردد للمرة المليون :

- أنت نحس ..نحس.

مضت الأيام ثقيلة، ومع مضيها بدأت وصال في التحسن، وإن لم تتوقف نوبات الهذيان، وفي أخر نوبة لها، والتي كانت أشد وطأة من سابقيها، سمعت على لسانها ما زلزل روحي، وهز كياني وجعلي عاجز عن التفكير.

كنت نائمًا بجوارها على مقعد أحضرته من الصالون، ذلك النوم الغير المريح القريب جدًّا من الأرق، عندما سمعتها تصرخ باسمي.

استيقظت متوترًا، واندفعت نحوها، وقلت بصوت جزع فشل أن يحمل نبرة مطمئنة :

- أنا هنا يا وصال ..أنا هنا بجوارك.

وبنفس الصوت الصارخ المتضرع وجدتها تقول :

- سامح كن بجواري لا تتخلى عني..أنا أحبك.. أحبك جدًّا يا سامح.

أحسست أن رأسي ثقيلة، والدنيا تدور بي، ولكني تماسكت كي أظل بجوارها ، وبالفعل طوال الليل داومت على تبديل الكمادات الباردة التي كانت تعمل على تهدئة حرارتها، وعندما أقبلت الممرضة في الصباح، كان

التعب قد قتلني، وكانت وصال قد تعدت مرحلة الخطر، وكنت أنا بداخل الدوامة.

***

وهل يمكن أن ننسى

كلمة أحبك من قلب صادق

هل ...

obeikandl.com

-21-

لا بد وأنني سأصاب بتسمم الأدرينالين، الكمية التي تضخ في عروقي مع توتري وقلقي تكفي ببساطة لإيقاف قلبي. كل شيء من حولي يتحرك بطريقة مستفزة، أعصابي تكاد تنهار، ما أمر به هذه الأيام يفوق كل قدرتي على التحمل ..

قلقي وتوتري يفوقان مرض وصال، يتخطياه إلى مدى أبعد، مدى لم أتخيل في يوم من الأيام أن أصل إليه.

إن قلبي يتحرك من أجلها، بل يخفق في قوة، واهتمامي بها يزداد بطريقة مقلقة، مازلت أتشبث بعشق لبنى، ومازلت أهرب إليه، إلا أن وصال تكتسب بداخل روحي وقلبي مساحات شاسعة.. وهو ما لا أستوعبه، وأحاربه، ومازلت برغم كونها زوجتي أعتبره أحد أنواع الخيانة .

كيف تتقلب القلوب بهذه السرعة ؟!.

كيف تستسلم لعشق جديد وبداخلها يسكن عشق كامل حي ؟!.

لابد وأنه وهم..

ولكن كيف تجعل الأوهام القلب ينبض ، ويتعذب بهذه الطريقة ..

شيء ما بداخلي تغير بعد أن تعافت وصال، كنت حزينًا من أجلها، قلقًا عليها، خائفًا من أن تغادر عالمي هي الأخرى .

لم أعد أشعر بأن الأمر محنة كما كان من قبل، وبدأ شيء ما يرق بداخل قلبي، وأخذت تحتل بتهذيبها، وأخلاقها وحسن عشرتها مكانًا دائمًا بجوار لبنى.

أخفيت على وصال هذيانها، وأخفيت عنها مشاعري، وكأن ما وقر بداخلي، أن زواجنا مؤقت، مجرد تنفيذ لوصية شخص راحل عزيز علينا.

إلا أن الأمور كانت تتطور دون جهد مني.

وبدون وعي وجدت نفسي أتابع تحركات وصال. نظراتها، طريقة عقصها لشعرها، عينيها السوداوين كبئر مفعم بالأسرار، ابتسامتها الخجلى، اهتمامها بكل ما يخصني، لمستها في البيت المشع بالنظافة ومعطر الجو .

لقد بدأت تحوز من عالمي مساحات كبيرة، وجاهدت نفسي كي لا تلحظ الأمر.

كان وجودنا معًا لفترات طويلة في مكان واحد مغلق، يبدو كفعل السحر في التقارب بيننا.

من يمرون بمحنة ما تتآلف أرواحهم، وترق قلوبهم، فما بالكم بزوجين لم يريا الدنيا إلا من الخارج.

عدت لعملي بعد أسبوعين من الزواج، كنت أحاول الهرب من نفسي ومشاعري، محاولًا ألا أخون عشق لبنى بداخلي، وعادت مذكرات لبنى لتحتل مساحة من يومي وسيارتي. كنت أشعر بنفسي كالمطارد، ورابع المستحيلات أن تهرب من نفسك.

اعتدت على وجود وصال في تفاصيل يومي، وبدأت أعود ملهوفًا إليها، وبدأنا نتحدث في الواتس أب أثناء وجودي في المكتب أو مواقع العمل، وكأن وجود حاجز بيننا كان يفتح المجال للقلوب.

تحدثنا عن لبنى كثيرًا، وعنها وعني، ولكننا بداخل شقتنا كنا نتحدث في الأمور العادية، ولم يحاول أي منا كسر هذه العادة، كأن بيننا تفاهم سري أن ندع للأيام الفرصة لإصلاح الأمور.

مرت علينا أيام صعبة وعصيبة كزوجين، ولكننا عبرناها معًا، ومعنا طيف لبنى لا يفارقنا، تصحبنا دعوات أمي وأبيها وأمها، ووالدي وصال، لقد صرنا جميعًا أسرة واحدة.

لم يحدث بيننا أي تقارب جسدي لمدة شهر كامل، ووقعنا سويًا تحت إلحاح وضغوط الأهل، في حين كنا نمضي الوقت في بيتنا وكأننا أصدقاء، وعلى الوتس أب كنا نتحدث كأصدقاء مقربين، لا يفصلهم عن الاعتراف لبعضهم بالعشق إلا لحظة مناسبة تأخرت قليلًا.

وبعد مضي شهرين على زواجنا، كلفت بمهمة جديدة لمتابعة مشروع الغردقة.

أعدت لي وصال حقيبتي للسفر، وعلى باب شقتنا ودعتني وهي تغالب دموعها، وقبل أن أنصرف نظرت نحوي نظرة لم أرها من قبل، كانت تنظر لي بشوق عاشق يودع حبيبه، وقالت بصوتها المنكسر:

- سامح كن حذرًا، ولا تتأخر في عودتك إلي.

وساعتها هاجت مشاعري، وتدفق الأدرينالين في عروقي، واندفعت نحوها لأضمها إلى صدري، ور وحي تضيع في عبق عطرها ودفء جسدها، و ارتعاشة أطرافها، ولهفتها وخوفها .

ذابت بيننا مسافات كبيرة، وشعرت بجسدي يفور ويغلي ويشتاق للقائها، ولكني برغم كل شيء لم أكن مستعدًا لخطوة مماثلة، فقبلتها على وجنتيها، وبصوت يموج بالحرارة قلت :

- لن أتأخر يا حبيبتي، هي أيام قليلة وأعود إليك.

انتفض جسد وصال عندما سمعت الكلمة، ولم تعقب بغير الدموع، فانتزعت نفسي من طوفان المشاعر، وسحبت حقيبتي ورائي وأغلقت الباب خلفي، وكل خلية في جسدي تنتفض .

هل حقًّا دعوتها حبيبتي ؟!

هل غلبني قلبي ؟!

والأمر الغريب أني شعرت وقتها براحة عجيبة تجتاح كياني، وببسمة تتوج شفتي، وبكل ما يعتمل داخلي من شوق، قلت بصوت لم يسمعه غيري، وأنا أشير لصديقي حسين الذي أتي بسيارته ليقلني للمطار:

- كم أفتقدك يا وصال ..كم أفتقدك يا حبيبتي .

***

لاحظ الجميع في العمل تلك التغيرات التي ألمت بي، وبالطبع لم يعلق أحدهم، وإن ظهر في طريقة تعاملهم معي، خاصة وقد تبدلت طريقتي الجافة مع المهندسين الأقل شأنًا مني في الشركة والفنيين والعمال، وانتقلت الراحة التي شعرت بها إلى فريق العمل بالكامل، فلم أعد أنا ذلك المهندس الكئيب القادم من الفرع الرئيسي للشركة لخراب بيوتهم.

ومضت علي أيام العمل بموقع الغردقة، وجسدي يتقلب على الجمر، وروحي تهفو إليها، وبطريقة ما توارى طيف لبنى في عالمه، وبدأت أفكر فيها بطريقة مختلفة. فلم أعد أتهمها بأن حبها لي ورطني في محنة وصال، بل أردت أن أشكرها ، فكتبت بخطي في مذكراتها :

- شكرًا حبيبتي على نعمة وصال، وعلى نعمة حبك، أوقات كثيرة يعمي الحب أصحابه، ويحرق قلوبهم بالشك، ولكن ملاك مثلك عندما عشق،

سما فوق أنانية الحب وأنانية الذات، وسما فوق كل المشاعر البشرية ومحنة الألم والمرض ، ووهب حبه لأقرب الناس إليه .

وفي اليوم الأخير من العمل، خرجت بصحبة أحد المهندسين لأحد متاجر الذهب، وقمت بشراء قلادة ذهبية تحمل الحرف الأول من أسمي ..

كانت هديتي الأولى لوصال ..

وعندما التقينا في تلك الليلة، كان من الواضح أن ما بداخلنا لن يمكن كبح جماحه أو تهدئته ..

إن القلوب العاشقة بركان ثائر، تهدأ وتشتعل بأحضان الحبيب.

ألبستها القلادة الذهبية التي كان لها معنى مختلف في عين بها بأنها صارت تملكني ، وبأنني بالفعل بدأت أعاملها كزوجة.

كان عناقنا في ذلك اليوم مختلفًا، عناق حبيب لحبيبته، وعاشق لمعشوقته، ولأول مرة من زمن بعيد ، أشعر براحة بال.

كانت وصال قد أعدت قائمة من الطعام تكفي أسرة من عشرة أفراد احتفالًا بعودتي، تناولنا الطعام على مقعدين متجاورين، وأطعمتها بيدي وأطعمتني بيدها.

obeikandl.com

وبرغم دقة الموقف وخصوصيته، تذكرت لبنى، وأمنياتها بأن تصنع لي الطعام بيدها، وتطعمه لي وأطعمه لنا.

وابتسمت من داخلي، وأنا أشاهد طيفها حولي، ينظر نحوي بنظرة سعادة وتفهم ، ويشير لي بأن موعد الرحيل قد حان.

ودعتني بنظرة فودعتها بابتسامة، وساعتها نظرت نحوي وصال وعلى وجهها ابتسامة حنون وقالت :

- هل أعجبك الطعام إلى هذه الدرجة ؟.

نظرت نحوها، وقد تفجرت كل أشواقي إليها، وقلت :

- بل أعجبتني صاحبة الطعام أكثر.

وساعتها اتسعت ابتسامتها لتشمل الوجود كله، قبل أن تخطف يدي من فوق المائدة، لتقبلها وهي تنظر نحوي في هيام :

- لا حرمني الله منك أبدًا.

منحتها نظرة تحمل كل ما بداخلي من صدق وحب، وقلت :

- ولا منك يا حبيبة قلبي.

وقطعنا النهار كله جالسين على الأريكة أمام التلفاز، كنا نشاهد أحد الأفلام الأجنبية الرومانسية، وتطرق الحديث إلى لبنى عفويًا، ثم عبرناها

obeikandl.com

وتحدثنا عن أشياء أكثر خصوصية، ومرت الساعات بيننا، ولم أشعر إلا ووصال تغفو في حضني فوق الأريكة، وعندما انتبهنا ابتسمنا، وغرقنا في أحضان بعضنا أكثر.

لم يكن الوضع فوق الأريكة مريحًا، وكان النوم قد بدأ يتملك منها، لابد وأنها بذلت مجهودًا خرافي لتصنع كل هذا الطعام وحدها، تحركت بجسد متمايل صوب غرفة النوم، وبعين نصف مغلقة نظرت نحوي، وقالت :

- ألم يحن الأوان لتنام في سريرك بعد؟ .

ومن يومها أصبحنا ننام سويًا على فراش واحد، مكتفين بالعناق، ووجودنا بقرب بعضنا.

لم يكن كل الجليد قد ذاب بعد، ولكن ما ذاب منه كان يبشر بفصل جديد في حياتنا. وفي ذكرى ميلادها، احتفلنا سويًا وحدنا، وفي هذا اليوم تبدل شيء ما بداخلي وداخلها، وتسللت إلى القلوب طمأنينة غريبة، وكأننا كنا في رحلة ووصلنا إلى نهايتها.

وفي نهاية اليوم، طلبت منها أن ترتدي فستان الفرح، و ارتديت أنا حلة العرس، وفي صالة المنزل وعلى ألحان أغنيتنا المفضلة - نعم أصبح لنا أغنية مفضلة ..لقد تغيرت أمور كثيرة – جثوت على ركبتي أمامها، وأنا أنظر لوجهها الفاتن، وقلت :

- وصال حبيبتي ..هل تقبلين الزواج مني؟.

نظرت نحوي بسعادة وشقاوة وغنج وقالت :

- ولكني زوجتك بالفعل، هل هناك من يطلب زوجته للزواج مرة ثانية؟.

منحتها قبلة على يدها و استطردت قائلًا :

- الظروف التي مرت علينا أجبرتنا على أشياء كثيرة، لم نملك معها حرية الاختيار، لكنني في هذه اللحظة وبكامل أرادتي أختارك من كل قلبي، فحبك ولد بداخلي حتى ملكني، ولا حيلة لي أمام رقتك و حنانك وجمالك إلا أن أسلم لكِ قلبي، وأختارك كي تكوني زوجتي، وأسرتي، وحياتي القادمة.

لم أرها سعيدة مثل هذه اللحظة في حياتي، وبكل ما بداخلها من مشاعر قالت :

- سامح أنا موافقة، موافقة أن أكون زوجتك، وحبيبتك، وصديقتك، وأم أولادك، موافقة أن أكون أختك وأمك ومستقبلك القادم، موافقة أن أسلمك قلبي الذي هو ملكك منذ وقت طويل ..موافقة يا سامح موافقة.

كانت هذه الليلة هي ليلة زفافنا الحقيقية . وليلتها سهرنا معًا حتى الصباح، وكل منا يروى روحه وجسده من نبع الأخر. ذاق كل منا

السعادة الكاملة، وكانت كل خلية بداخلنا، تشكر لبنى على ما تشعر به من فرحة.

لقد امتلكت لبنى بروحها الشفافة بعض رؤى المستقبل، لقد اقتربت مني ومن وصال، وعلمت بداخلها وبحب خالص لنا ما لم نعلمه عن أنفسنا، كانت هي الجسر الملائكي الذي وحد طرقنا، وألف بين قلوبنا، فصرنا بنعمة الله عشاقًا وأزواجًا.

وبعد مضي عدة أسابيع علمنا بحمل وصال، وكانت سعادتي بالخبر تفوق كل سعادة شعرت بها في حياتي، ودعوت الله بداخلي أن يكون الجنين بنتًا جميلة كأمها، بل دعونا جميعًا وتضرعنا إلى الله كي يحقق لنا هذه الأمنية، وأظهر لنا السونار بعد عدة أسابيع أخرى أن الله قد استجاب لدعائنا.

ذهبت لبنى كحبيبة، وعادت لثلبنة لترد الحياة فينا جميعًا .

جمعتنا لبنى بحب، وعلى الحب سنبقى دومًا، ودومًا ستبقى هي معنا.

وإن كانت فارقتنا، فحبها لم يفارقنا، برغم حبنا الخاص الذي ولد على يديها.. كانت رسول المحبة، هبط من السماء ليجمعنا سويًا ثم غادر بجسده لا روحه.

وتذكرت لوهلة حديث خاص دار بيني وبين لبنى :

- أتمنى أن يرزقنا الله ببنت يا سامح، هكذا أحلم بأول أبنائي منك، فالبنت تحمل في قلبها من الحن ان ما يرقق قلب أبيها، وكلي شوق لأول نظرة ألقيها عليها، وأول خطوة تخطوها، وأول كلمة أسمعها منها، وأول يوم تذهب فيه إلى مدرستها، هل تعتقد يا سامح أنها ستشبهك أم تشبهني أكثر؟!.

***

بعد أقل من عام كنا هناك.. عند قبر لبنى .

أنا، ووصال، ولبنى الصغيرة.

أردنا أن نخبرها أن ثمرة حبها لنا، قد أعادتها حية من جديد، وبأننا برغم عشقنا.. مازالت مساحتها في القلب لم تتغير.. وبرغم أننا في مكان لم يشهد يومًا إلا الأحزان، كنا سعداء سعادة خالصة وصافية، ربما للمرة الأولى منذ وقت طويل.

لم تكن لبنى بيننا في يوم من الأيام، بل كانت معنا دومًا، ولم تلومني وصال يومًا لو ذل لساني بلسمها، بل كانت متفهمة، ومحتوية، وحانية.

وأمام قبر لبنى نظرت نحو وصال لأقرأ مشاعرها من عين بها، كنت أخشى أن أرى أي نظرة غيرة أو كراهية، فبادلتني نظراتي بنظرات تقدير وامتنان،

وكأنها تخبرني أن من يحافظ على ماضيه ويجله ويقدره بهذه الطريقة، لن يسيء إلى مستقبله، وسيمنحه حياته ذاتها.

قرأنا لها الفاتحة .

ثم وضعنا على قبرها باقة من الزهور التي أحبتها دائمًا. شاركتني وصال في وضعها بنفسها. في نفس اللحظة التي أطلقت لبنى الصغيرة، ضحكة منتشية رأينا فيها، ضحكة لبنى، وأيقنا أخيرًا أنها عادت لنا.

***

لم تفارقني مذكرات لبنى يومًا، وظلت بقربي دومًا، وإن لم أطلع أحد عليها قط. وبقيت أحلامها التي كللت الصفحة الأخيرة من مذكراتها، سرنا المشترك.

وكلما فاجأت وصال بتحقيق أحدهما.

شعرت بسعادة لبنى في قلبي .

***

سلامًا على من رحلت في صمت .

لعلنا نلتقي مرة أخرى في الجنة.

ووقتها لن نخاف من الفراق أو مرور الزمن .

تمت بحمد الله

obeikandl.com

إهداء خاص

إلى جدتي : نبع الحب الصادق الذي لا يجف .

إلى أمي : شمس الحنان والعطاء والحب الأبدي .

إلى زوجتي: ذلك العشق الذي لا يموت.

إلى أبنائي : صفاء، كوثر ، محمود، ملك.

إلى أختي العزيزة وأسرتها.

إلى كل فرد في أسرتي الكبيرة ..

إلى العزيزة .. ندى وحيد عبد الرحمن .

تلك الفراشة الحالمة التي تمنحني بصمودها ورقتها وأحاسيسها الصادقة الدعم الكامل في مواجهة الحياة .

وإلى الصديقات: سهر شلبي، أمل زيادة، سما خالد، دعاء محمد، سماح أحمد عبد الخالق ، ريم أبو عيد، رانيا نصار، أميرة بدوي، أمل، هبة سالم، إيمان خضر، سحر خضر، فاتن فاروق، نور راشد، عصمت محمد.

إلى الأصدقاء : محمد عصمت، محمود خواجة، محمد عبد الرحمن، أحمد رمضان، محمد مظهر.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikandl.com